

الفصل الثالث

الأسرة الإسلامية في مجتمع المدينة

تعد الأسرة اللبنة الأساسية في بناء المجتمع وكيانه الاجتماعي ، ولذلك أعطاه القرآن الكريم عناية كبيرة في تشريعاته ، لأن قيام الأسرة الصالحة على الأسس الصحيحة معناها قيام المجتمع الصالح المستقر والعكس صحيح .

وهي نواة المجتمع سواء في البادية أو الحاضرة ، وهي أساس تكوين القبيلة ، وكان المثل الأعلى للعربي هو إنجاب أكبر عدد من الأبناء حتى ترتفع مكانته بين أبناء قبيلته ، والأسرة في اللغة أسرة الرجل ورهطه لأنه يتقوى بهم وعشيرته الاديين⁽¹⁾ .

والنظام الأسري^(*) الغالب في المجتمع العربي هو النظام الأبوي ، حيث يتمتع الرجل بالمركز الممتاز ، فهو قوام الأسرة والمسؤول عن حياتها ورزقها وشؤونها ، وهو المكلف بالحرب والدفاع ، والمطالب بالثأر والغرامات ، وهو المخاطب في المسؤوليات الاجتماعية المتنوعة⁽²⁾ .

وقد دفعت كل هذه الأسباب إلى إعطاء الرجل دوراً أكثر أهمية وتأثيراً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية ، في حين قل وضعف دورها ليصبح واجبها الأساسي هو تربية الأبناء والاهتمام بشؤون البيت والأسرة وأصبح الرجل هو صاحب الرأي والكلمة النافذة والمظهر البارز وقوامته في الأسرة .

وقد حاول الإسلام أن ينظم شؤون الأسرة وحاول أن يساوي بين الرجل والمرأة في الكثير من الحقوق والواجبات بما لا يخالف ما خلق لهما من مميزات مختلفة بالفطرة لهذا نراه يؤكد قوامه الرجل في الأسرة لما فيه من مصلحة الأسرة ، دون الحيف بحقوق المرأة وواجباتها . كما جاء في قوله تعالى :-

(1) الزبيدي ، تاج العروس ، 12/3 ، مادة أسر .

(*) وتوجد رسائل متخصصة في مجال المجتمع والأسرة :-

أ- ابن إدريس ، عبد الله عبد العزيز ، مجتمع المدينة في عهد الرسول (ص) ، رسالة ماجستير غير

منشورة ، مقدمة إلى كلية الآداب - جامعة الملك سعود ، إشراف الدكتور عبد الرحمن الطيب ، عمادة شؤون المكتبات لجامعة الملك سعود ، (الرياض-1399هـ) .

ب- السوداني ، صلاح عباس حسن ، الحياة الاجتماعية في الحجاز قبل الإسلام ، أطروحة دكتوراه غير منشورة في فلسفة التاريخ الإسلامي ، مقدمة إلى جامعة بغداد - كلية التربية / ابن رشد ، (بغداد-2002) .

ج- الحمداني ، محمد صالح ، منهج القرآن في تطوير المجتمع ، أطروحة دكتوراه غير منشورة في العلوم الإسلامية ، مقدمة إلى جامعة بغداد - كلية العلوم الإسلامية ، (بغداد-1991) .

(2) السهيلي ، الفرائض ، ص 27 .

1- « وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ »⁽¹⁾ .

2- «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ...»⁽²⁾ .

والمقصود هنا بالفضلى بالدرجة ، أي الفضيلة في الخلق والمنزلة وطاعة الأمر والإنفاق والقيام بالمصالح⁽³⁾ .

ويذكر الزمخشري⁽⁴⁾ في قوامه الرجال على النساء : (إن فضل الرجال على النساء في العقل والحزم والعزم والقوة والكناية في الغالب ، والفروسية والرمي ، وإن منهم الأنبياء والعلماء ، وفيهم الإمامة الكبرى والصغرى والجهاد ، والآذان والخطبة والاعتكاف والشهادة في الحداد والقصاص وزيادة السهم ، والعصيب في الميراث والحمالة والقسامة والولاية في النكاح والطلاق والرجعة وعدد الأزواج واليهم الانتساب والمهور والنفقات) .

كان الرجل في المجتمع العربي قبل الإسلام وعند بداية ظهوره ، هو صاحب الرأي والكلمة النافذة والمرأة على العموم تابعة له ومنسوبة إليه وتحت حمايته ومسؤوليته وهو الذي يمثلها في مصالحها ، لهذا نرى أن الخطاب القرآني في الكثير من الآيات سواء المكية أو المدنية يعد انعكاساً يرسم لنا منزلة المرأة ومكانتها

آنذاك ، كما في قوله تعالى :-

1- «... وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...»⁽⁵⁾ .

2- «وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عَقْدَةُ الزَّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى...»⁽⁶⁾ .

3- «زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ...»⁽⁷⁾ .

(1) سورة البقرة ، من الآية : 228 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 24 .

(3) ابن كثير ، تفسير ، 271/1 .

(4) الكشف ، 506-505/1 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 233 .

(6) سورة البقرة ، من الآية : 237 .

(7) سورة آل عمران ، من الآية : 14 .

- 4- ... وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا... (1)
- 5- وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ... (2)
- 6- وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى... (3)
- 7- رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ... (4)

وتبرز هذه الآيات مركز الرجل وميزاته واختصاصه بالمسؤولية والحرب والمهمات العظيمة والهيمنة على زوجته وشؤون الأسرة ، وقد برز ذلك كلياً في آية آل عمران حيث عبر عن الرجل بكلمة الناس وكأنما الرجل هو الدنيا وما فيها من النساء ، والبنين والأموال والزينة والمتع الأخرى (5) .

وعلى الرغم من النظرة العامة السلبية إلى المرأة في المجتمع ما قبل الإسلام وعند بداية ظهوره ، فقد تفاوتت مكانة المرأة العربية بين البادية والحضر ، ولا عجب أن نلمس هذا التفاوت داخل المجتمع الواحد نفسه وبين أسرة وأخرى وبين مجتمع وآخر بحسب تطوره وانفتاحه .

فكانت للمرأة أيضاً مكانة تتناسب مع الخدمات التي تقوم بها في المجتمع البدوي حيث يقع على عاتقها جزء كبير من العمل في البيت ، حيث إن المرأة هي الوسيلة الوحيدة لإنجاب الرجال الذين يزدون قوة القبيلة في السلم والحرب وخاصة إذا كان أولادها نجباء قادرين على أن يكونوا لأنفسهم مكانة مرموقة في

المجتمع (6) ، والمرأة هي ملهمة الشعراء ويتسابق الرجال للفوز بها (7) .

(1) سورة النساء ، من الآية : 34 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 75 .

(3) سورة يوسف ، من الآية : 109 .

(4) سورة النور ، من الآية : 37 .

(5) دروزة ، عصر النبي ، ص 129-131 .

(6) الحوفي ، الحياة العربية في الشعر الجاهلي ، ص 157 .

(7) المصدر نفسه ، ص 157 .

وهي التي تدخل البهجة والسرور لبيتها ، والأمثلة العربية على ذلك كثيرة منها (النساء شقائق الأقدام)⁽¹⁾ ، أما في المجتمع الحضري فقد تمتعت بدور أكثر أهمية بفضل التطور الاقتصادي الذي شهدته المجتمع سواء كان تجارياً أو زراعياً والذي اثر إلى حد بعيد في طبيعة النظام الاجتماعي وأوجد نوعاً من الاستقرار وما فيه انفتاح اكبر من مجتمع البادية المنغلق ، ولصعوبة الحياة فيه وضنك العيش .

ففي مجتمع مكة التجاري الذي كان أكثر تطوراً وانفتاحاً حيث تمتعت المرأة بقسط أوفر من الحرية والفعالية ومشاركتها في النشاط التجاري إلى جانب دورها ربة للبيت فقد برز الكثير من النساء التاجرات والشاعرات وكتب التاريخ تحفل بأسماء الكثير منهن ، فزوجة النبي (ﷺ) السيدة خديجة بنت خويلد (ﷻ) كانت (امرأة تاجرة ذات شرف ومال تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم أياه بشيء تجعله لهم)⁽²⁾ .

ولعل في عرض السيدة خديجة على النبي أن يتزوجها يعطينا صورة واضحة على الحرية التي كانت تتمتع بها المرأة المكية قبل الإسلام ، وان مثل هذا الزواج كان معروفاً ومألوفاً آنذاك وكذلك موقفها المساند له في دعوته وإعانتته على أعباء الحياة بأموالها ، وقد كرم القرآن الكريم المرأة في شخص السيدة خديجة (ﷻ) في مخاطبة الرسول (ﷺ) :- بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى ﴾ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى ﴾⁽³⁾ ، أي أغناك بأموال السيدة خديجة⁽⁴⁾ .

والمرأة حرة في اختيار زوجها وفي الطلاق منه إذا أساء عشرتها وخاصة في الأسر ذات الشرف والسيادة⁽⁵⁾ .

وكان النساء في الجاهلية والإسلام يخرجن مع الرجال إلى ساحات القتال يحملن الماء ويداوين الجرحى ويحرضن الرجال على القتال ، كما فعلت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان ، وأم حكيم بنت الحارث بن هشام وغيرهن في معركة بدر حيث خرجن مع جيش المشركين⁽⁶⁾ .

ونساء أخريات عرفن بشجاعتهن وكبر النفس سواء في مكة أو المدينة ، مثل سلمى بنت عمرو إحدى نساء بني عدي بن النجار ، وعمرة بنت علقمة الحارثية ونسيبة بنت كعب الأنصارية ، وكان اسم القبيلة يؤنث نسبة إلى المرأة مثل نسيبة الأنصارية ، وعمرة الحارثية وليس كما نفعله اليوم فنقول : نسيبة بنت كعب الأنصاري ، وعمرة بنت علقمة الحارثي .

(1) الميداني ، مجمع الأمثال ، 31/1 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق188/1 .

(3) سورة الضحى ، الآية : 6-8 .

(4) القرطبي ، تفسيره ، 99/20 .

(5) حتي ، تاريخ العرب ، 36/1 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق62/2 .

وعلى الرغم من أن الانتساب إلى الأب أي نظام الأبوة هو السائد في مكة ومعظم بيئة الحجاز ، فإن الفرد العربي كان يفخر بنسب أمه كما يفخر بنسب أبيه ، فلهذا نرى أن الكثير من القبائل والأشخاص انتسبوا إلى أمهاتهم كما أكدت على ذلك كتب الأنساب⁽¹⁾ ، وكما جاءت الكثير من أسماء القبائل العربية أنثوية ، فمثلاً : أبناء طهية وهي أم قبيلة من العرب والنسب إليها طهوي⁽²⁾ ، وكذلك بنو مرة يعرفون ببني سلول وهي أمهم ، وبنو زهرة بن كلاب ، وزهرة امرأة ينسب إليها ولدها وهم أخوال رسول الله (ﷺ)⁽³⁾ ، وهناك أمثلة أخرى كثيرة .

وكانت قريش تسمي بعض آلهتها تسمية أنثوية ، مثل الالة والعزى ومناة ونائلة⁽⁴⁾ ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿الْكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى﴾ ⇒ تِلْكَ إِذْ أ قِسْمَةٌ ضِيزَى⁽⁵⁾ .

أما عن مكانة المرأة في مجتمع يثرب الزراعي الذي يقوم على أساس كون الأسرة وحدة أساسية في الإنتاج ، فقد أسهمت المرأة إسهاماً فاعلاً وكانت تقوم بعمل مزدوج يجمع بين الحقل والبيت فتعززت مكانتها في نفوس الرجال⁽⁶⁾ ، وخروجها للحقل عمل على صقل شخصيتها واكسبها مزيداً من الخبرة والمعرفة وكانت تتمتع بقسط وافر من الحرية والمكانة المتميزة ومثال على ذلك أن الأوس والخزرج كانوا ينسبون إلى قبيلة ، وهو اسم جدة لهم⁽⁷⁾ .

وكان اسم أبي كبشة من الأسماء المؤنثة الشائعة والمحبة والتي كان يكنى بها الرجال في يثرب ، وهو الاسم الذي كُني به رسول الله (ﷺ) في يثرب وذلك لإظهار صلته بمدينتهم لأن عمرو بن زيد بن لبيد وهو جد عبد المطلب أبو أمه سلمى كان يكنى بهذا الاسم⁽⁸⁾ .

ويبدو أن بعض يهود يثرب كانوا قد تأثروا بذلك مثال ذلك إن كعب بن الأشرف العربي الأب واليهودي الأم ، كان ينسب إلى يهود بني النضير وهم أهل أمه⁽⁹⁾ .

(1) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 49 .

(2) التبريزي ، ديوان الحماسة ، 29-28/1 .

(3) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 29 ، ص 32 .

(4) ابن الكلبي ، الأصنام ، ص 13 ، ص 29 .

(5) سورة النجم ، الآية : 21-22 .

(6) احمد أمين ، فجر الإسلام ، ص 11 .

(7) ابن قتيبة ، المعارف ، ص 49 .

(8) ابن حبيب ، المحبر ، ص 129 .

(9) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، 49/2 .

وكان نساء المدينة يخرجن إلى ساحة المعركة لمداواة الجرحى وحمل الماء⁽¹⁾ .

وكانت للحرية التي تتمتع بها المرأة اليثربية أن تضايق عمر بن الخطاب (◀) ودهش من تصرف الأنصار مع نسائهم وقال : (وكان معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار إذ هم قوم تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يأخذون من أدب الأنصار)⁽²⁾ ، ولعل في نساء يثرب اللائي خرجن مع الرجال لمبايعة الرسول (ﷺ) في بيعة العقبة خير من يمثل اعتراف المجتمع المدني بأهمية المرأة آنذاك⁽³⁾ .

حقوق المرأة في القرآن الكريم :-

على الرغم مما كانت تتمتع به المرأة الجاهلية من حرية ومكانة إلا أن الكثير من حقوقها كانت مغبونة ووضع عليها الكثير من الحيف وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك كما جاء على لسان امرأة عمران مخاطبة ربها : ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ...﴾⁽⁴⁾ .

لهذا انزل (ﷻ) العديد من التشريعات لرفع ما وقع وألم بها من حيف وظلم في الجاهلية وبداية عصر الإسلام ، وقد حاول الإسلام رفع مكانة المرأة لهذا نرى إطلاق تسمية النساء على إحدى سور القرآن الكريم والتي تضمنت الكثير من آيات التشريع لأنصاف المرأة مما هي فيه من واقع وكذلك تسمية بيعة العقبة الأولى ببيعة النساء^(*) ، وعمل الإسلام على تحقيق المساواة بين الطرفين مع مراعاة ما يخالف الفطرة ، فمن ضمن مسؤوليتها إدارة شؤون البيت وتربية الأطفال فان في خلقه للمرأة حكمة حيث جعل من ضعفها منفعة لها ولبيتها ، لكي تقوم بواجباتها داخل الأسرة ، كما جاء في حديث الرسول (ﷺ) قال : (كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته : الإمام راع ومسؤول عن رعيته والرجل راع في أهله ومسؤول عن رعيته والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته...)⁽⁵⁾ ، وأول واجبات المرأة الأمومة التي جعلها الله أسمى ما تقدمه المرأة بعد أن جعل الجنة تحت أقدام الأمهات وخاطب الرجال والنساء على السواء :

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 223/8-225 .

(2) المصدر نفسه ، 182/8 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق/441 .

(4) سورة آل عمران ، من الآية : 36 .

(*) سميت بهذا الاسم لأن الرسول بايع على نفس هذه المبادئ نساء قريش حين اسلمن بعد فتح مكة . ينظر: ابن كثير ، السيرة

النبوية ، 335/1 ؛ وقد أوردنا في التمهيد في موضوع بيعة العقبة سبب أخر لهذه التسمية ص13-16 .

(5) النووي ، رياض الصالحين ، 320/1 .

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ (1).

وللمرأة حق الحياة والتمتع بها مثل الرجل لذلك وجب حمايتها والقصاص ممن يعتدي عليها :
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ...﴾ (2).

والمرأة مخلوقة مكرمة لتكريمه (⇒) لبني آدم في قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (3).

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (4).

1- ﴿... وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ...﴾ (5).

2- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ⇒ يَتَوَارَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ...﴾ (6).

3- ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ ⇒ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾ (7).

(1) سورة النساء ، من الآية : 1 .

(2) سورة البقرة ، من الآية : 178 .

(3) سورة الإسراء ، الآية : 70 .

(4) سورة الأحزاب ، الآية : 35 .

(5) سورة الأنعام ، من الآية : 151 ، ويبدو أن الوأد لم يكن مقتصرًا على الإناث بل شمل الذكور أيضاً .

(6) سورة النحل ، الآية : 58-59 .

(7) سورة التكاوير ، الآية : 8- ومن الآية : 9 .

وقد أشار القرآن الكريم إلى عادة سيئة وبشعة كان يمارسها بعض عرب الجاهلية وهو وأد البنات ، فخطبها في القرآن بأسلوب مؤثر^(*) .

ويبدو أن (الوآد) ، لم تكن ظاهرة واسعة وإنما مارستها بعض القبائل البدوية وبحدود ضيقة ، ومع ذلك فقد شدد الإسلام على تحريمها واستنكارها .

إن عادة وأد البنات لو كانت ظاهرة شائعة لانقرض أو تضائل الجنس البشري في الجزيرة العربية ولأختل التوازن الطبيعي ، بل العكس من ذلك فأنا نجد في تعدد الزوجات دون حدود قبل الإسلام ، ومن ثم تحديدها بأربعة زوجات بعد الإسلام يشير إلى أن عدد الإناث عند العرب أكثر من الذكور ولم يكن هناك خلل اجتماعي ، لذلك فأنا حينما نمر على عادة وأد البنات التي ذكرت في القرآن الكريم يجب أن لا نأخذ صورة قاتمة ومظلمة عن وضع المرأة قبل الإسلام ، لأن القرآن الكريم تصدى لجميع الظواهر السلبية التي كان عليها العرب ، حتى وإن كانت حالات فردية أو نادرة .

ومن الملاحظ أن الآيات التي نزلت في الوآد كلها كانت مكية مما يدل على أن هذه الظاهرة كانت خاصة ببعض قبائل مكة أو القبائل المحيطة بها^(*) ، بل أن بعض الروايات تقول : إنها (اقتصرت على بني تميم)⁽¹⁾ .

وفي رواية كان الوآد في مضر وخزاعة⁽²⁾ ، لذلك فإنه لا توجد في أخبار العرب إن أهل يثرب قد فعلوا ذلك ، إذ لا توجد بين القبائل التي ذكرت قبيلة من الاوس والخزرج قد مارستها ، ولو كانت هذه العادة موجودة في يثرب لجاء في القرآن آيات مدنية فيها تذكير وتأکید .

كما لا يوجد في الحديث النبوي إشارة تشير إلى وجودها عند أهل يثرب وفي الوقت الذي منح فيه الإسلام للمرأة حق الحياة وكفل لها الحماية فقد منحها الحق الكامل لاكتساب الأموال والتصرف بها دون

(*) وهناك آيات مكية تشير إلى هذه الظاهرة منها سورة الإسراء الآية (31) ، وسورة الممتحنة (12) ، وسورة الزخرف الآية (16)- (17) .

(*) وتذكر الروايات أن جد الفرزدق بذل مجهوداً في إبطال هذه الظاهرة قبل الإسلام ، حيث كان يشتري البنات اللاتي يريد أهلهم وأدهن ، ويذكر انه اشترى أربعمائة وأربع من الجواري لافتدائهن من الوآد ، ولذلك كان الفرزدق يفخر في شعره بجده على جميل فعله في الجاهلية . ينظر: ابن هشام ، السيرة ،

ق1/240 ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ص141 ؛ الاصفهاني ، الأغاني ، 144/12 .

(1) الاصفهاني ، الأغاني ، 144/12 .

(2) القرطبي ، تفسيره ، 117/9 .

تدخل من أحد مادام تصرفها سليماً ، والميراث أحد أسباب اكتساب الأموال ، وهذا الحق حرمت منه في الجاهلية حيث كانوا لا يورثون النساء والصغار ولو كانوا ذكوراً من الآباء .

وقد نزلت آية توريث البنات في المدينة ، بعد أن اشتكت أحد الأنصاريات إلى النبي (ﷺ) فتذكر الروايات أن أم كحلة وابنتها وثعلبة وأوس بن سويد هم من الأنصار كان أحدهم زوجها والآخر عم ولدها فاشتكت إلى رسول الله عدم توريثها هي وابنتها بعد وفاة زوجها من تركته فقال أخو زوجها الذي ورث كل تركته يا رسول الله إنها (لا تركب فرساً ولا تحمل كلاً ولا تنكي عدواً ، يكسب عليها ولا تكسب)⁽¹⁾ ، فأنزل قوله تعالى : ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾⁽²⁾ .

وأوصى الرسول الكريم بالمرأة وأكد على حقوقها قائلاً : (أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا في البيت)⁽³⁾ .

وفي حديث آخر عن النبي (ﷺ) : (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم)⁽⁴⁾ .

لقد ساوى القرآن الكريم المرأة والرجل في التكاليف الشرعية وفي الاعتقاد والعقوبات ورفع مكانتها ودعى إلى مشاركتها في الكثير من جوانب الحياة العامة إلا ما ورد استثناء وفقاً لطبيعتها واستعدادها⁽⁵⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ...﴾⁽⁶⁾ .

وحرم الإسلام عضل النساء كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾⁽⁷⁾ .

(1) الطبري ، تفسيره ، 604/4 ؛ النسفي ، تفسير النسفي ، 206/1 .

(2) سورة النساء ، الآية : 7 .

(3) النووي ، رياض الصالحين ، 174/1 .

(4) المصدر نفسه ، 174/1 .

(5) طبرة ، عفيف عبد الفتاح ، روح الدين الإسلامي ، ط2 ، دار العلم للملايين ، (بيروت-1956) ، ص356-389 .

(6) سورة آل عمران ، من الآية : 195 .

(7) سورة النساء ، من الآية : 19 .

فيذكر الزمخشري⁽¹⁾ في تفسير الآية : (إن النساء كان يبلون بضروب البلايا ويظلموهن بأنواع من الظلم فزجروا عن ذلك) .

وفي رواية عن ابن عباس(◀) قال : كان الرجل إذا مات له قريب من أب أو أخ أو حميم عن امرأة القى ثوبه عليها وقال أنا أحق بها من كل احد⁽²⁾ ، فأن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها ومنعها من الزواج حتى تموت ، وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر لتفتدي فيه بمالها وتختلع فقيل : «وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ» والعزل : هو الحبس والتضييق⁽³⁾ .

ومن الحقوق الأخرى التي أعادها الإسلام للمرأة هو ارث الكلالة ، والكلالة مأخوذة من الإكليل الذي يحيط بالرأس من جوانبه ، فقد كان ارث الميت الذي لا نسل له وخاصة من لا نسل له من الذكور ولا أبوان له يصرف الإرث إلى أخوته وعصبته (أي أقاربه من الذكور) وينكر على الأخوات منه حقهن⁽⁴⁾ .

حتى انزل قوله تعالى : «يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنْ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَلَدٌ فَإِنْ كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلَثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِنْ كَانُوا إِخْوَةً رِجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا...»⁽⁵⁾ .

ويذكر أن عمر بن الخطاب (◀) كان كثيراً ما يسأل الرسول (ﷺ) عن الكلالة ، فقال له : ألا يكفيك يا ابن الخطاب نزول آية الميراث⁽⁶⁾ .

وقد هاجرت المرأة إلى المدينة كما هاجر الرجال : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاْمْتَحِنُوهُنَّ» اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ...»⁽⁷⁾ .

وكما ذكر المؤمنات في القرآن الكريم ورد ذكر المنافقات والمشركات كما جاء :

(1) الكشف ، 490/1 ؛ تفسير الآية : 19 من سورة النساء .

(2) الزمخشري ، الكشف ، 490/1 ؛ ابن كثير ، تفسيره ، 199/2 .

(3) الزمخشري ، الكشف ، 490/1 .

(4) ابن كثير ، تفسيره ، 593/1 ؛ دروزة ، عصر النبي ، ص 134 .

(5) سورة النساء ، من الآية : 176 .

(6) ابن كثير ، تفسيره ، 593/1 .

(7) سورة الممتحنة ، من الآية : 10 .

1- في قوله تعالى : ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ...﴾ (1) .

2- ﴿الْيَعِزُّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ...﴾ (2) .

وهذه الآيات أوردت ذكر المنافقين والمنافقات ، فكما كان دور المؤمنين والمؤمنات في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تضامني ، كذلك كان دور المنافقين من كلا الجنسين تضامني ، وفي هذه الآيات أيضاً إشارة إلى امتلاك المرأة للأموال وتصرفها بها ، وورد أيضاً ذكر الشركات وما توعدهم به (⇒) من عذاب ، وما كان لهن من دور في إيذاء الرسول (ﷺ) وتعذيب المسلمين في بداية الدعوة وخاصة زوجة أبي لهب ، كما في قوله تعالى : ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ⇒ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ⇒ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ⇒ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ⇒ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ (3) .

وضع الإسلام جملة تشريعات لتقويم سلوك المرأة لما لها من دور ريادي في بناء المجتمع وتربية الأسرة والحفاظ عليها ، لهذا عمل الإسلام على المحافظة على عفتها وكرامتها وطلب منها الالتزام بالحشمة والوقار ، وحرم القرآن على المرأة أبداء زينتها إلا ما ظهر منها دون تعمد كالوجه واليدين والخاتم والظاهر من الثياب (4) ، كما في قوله تعالى : ﴿وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا...﴾ (5) .

وكذلك صور لنا القرآن مشية المرأة المؤمنة أن تكون هادئة معتدلة في مشيتها بحيث لا تكون حركة المرأة سبباً في إظهار زينتها أمام الرجال كما جاء في قوله تعالى : ﴿... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ...﴾ (6) .

وصور لنا القرآن أيضاً حديث المرأة المؤمنة مع الرجال أن لا يخضعن بالقول أي عدم الميوعة في الحديث فجاءت مخاطبة القرآن لزوجات الرسول كمثال يحتذى به سائر نساء المسلمين : ﴿يَا نِسَاءَ

(1) سورة التوبة ، من الآية : 67 .

(2) سورة الأحزاب ، من الآية : 73 .

(3) سورة المسد ، الآية : 1-5 .

(4) ابن كثير ، تفسيره ، 283/3 .

(5) سورة النور ، من الآية : 31 .

(6) سورة النور ، من الآية : 31 .

النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيْطْمَعِ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (1) .

كذلك حرم الإسلام خلوة المرأة مع غير ذي محرم وكذلك سفرها ، كما جاء في حديث عن أبي هريرة (◀) عن رسول الله (ﷺ) قائلاً : (لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تسافر مسيرة يوم وليلة إلا مع ذي محرم) (2) .

وعلى الرغم من هذه القيود التي طلب الإسلام من المرأة الالتزام بها ، ولكنه شجع المرأة على التعليم ، وفي رواية عن البلاذري (3) : أن الرسول (ﷺ) شجع زوجته حفصة بنت عمر (رضي الله عنهما) على تعلم الكتابة .

لذلك فإن القرآن الذي جمعه الخليفة أبو بكر وانتقل فيما بعد إلى الخليفة عمر بن الخطاب (◀) أودعه لدى ابنته حفصة زوجة الرسول (ﷺ) (4) .

ويذكر أيضاً إن بعض النساء كن كاتبات في الجاهلية مثل الشفاء بنت عبد الله العدوية من رهط عمر بن الخطاب التي أوكل إليها تعليم حفصة الكتابة (5) ، وكان بعضهن كاتبات في صدر الإسلام ومنهن أم كلثوم بنت لقية ، وعائشة بنت سعد (6) .

ويذكر البخاري (7) ، إن نساء المسلمين في المدينة على عهد النبي (ﷺ) طلبن منه أن يجعل لهن يوماً يُعلمن فيه القرآن الكريم ومبادئ الإسلام .

وقد أشادت أم المؤمنين عائشة بنساء المدينة قائلة : (نعم النساء نساء الأنصار لم يكن يمنعهن الحياء أن يسألن عن أمور الدين ويتفقهن فيه) (8) .

وقد روت الكثير من النساء المدنيات الحديث عن النبي (ﷺ) وفي مقدمتهن أمهات المؤمنين (9) ، فلا غرابة بعد ذلك أن نجد كثيراً من المحدثات من العصر العباسي ممن يؤخذ عنهن الحديث من مشايخ

(1) سورة الأحزاب ، الآية : 32 .

(2) أبو نعيم الاصبهاني ، حلية الأولياء ، 157/9 .

(3) فتوح البلدان ، ص 477 .

(4) المصدر نفسه ، ص 477-478 .

(5) المصدر نفسه ، ص 477 .

(6) المصدر نفسه ، ص 476-477 .

(7) صحيح ، 50/1 .

(8) ابن حزم ، علي بن احمد بن سعيد الاندلسي ، (ت456هـ) ، جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى ، دار المعارف ، (مصر - د.ت) ، ص 276 .

(9) عدنان علي الفراجي ، الحياة الفكرية في المدينة المنورة ، ص 74 .

عصرهم ، لأن هناك سابقة في الإسلام⁽¹⁾ ، وللمحافظة على عفة المرأة المسلمة والرجل على السواء وللمحافظة على الأسرة والمجتمع من الانحلال والتفسخ ولصون الأعراض من الانتهاك وحفظ الأنساب من الاختلاط حرم الإسلام الزنى ، لأن تفشيه في مجتمع يؤدي إلى إفساد الجماعات وإشاعة الفاحشة ، فلا عجب أن عدّه الإسلام من الكبائر وجعل عقوبته من أشد العقوبات ، والزنا كان معروفاً في اللغة قبل الشرع ، وكان بمعنى الفعل الخاص القبيح وهو أن يأتي رجل وامرأة بفعل الجماع بغير أن تكون بينهما علاقة زوجية⁽²⁾ .

وقد حرمت جميع الأديان السماوية الزنى وحاربته وآخرها الإسلام ، لهذا نرى رسول الله (ﷺ) حكم بالرجم على اليهودي واليهودية عند سؤال اليهود رسول الله الحكم فيهم بعد أن اخفوا وعطلوا العمل بآية الرجم في التوراة وأمر برجمهما عند باب المسجد وقال : (أنا أول من أحيا أمر الله وكتابه وعمل به)⁽³⁾ .

كان الرجل قبل الإسلام يتزوج أي عدد يشاء ويطلق من يشاء لا تثريب عليه في ذلك فلم يكن الأمر مقيداً ، ولذلك لم يكن للزنى شأن كما أصبح له بعد الإسلام لهذا نرى أن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان عند مبايعتها الرسول (ﷺ) مع نساء قريش بعد فتح مكة بيعة النساء ، كما ذكرت بنوده سورة الممتحنة الآية الثانية عشرة بايعن على أن لا يزينن فسألت هند رسول الله متعجبة ؟ : (يا رسول الله وهل تزني الحرة ، قال : لا والله ما تزني الحرة)⁽⁴⁾ .

ويبدو من تدرج الأحكام في تحريمه انه لم يكن على نطاق ضيق ، وإن تحريمه لم يكن جملة واحدة ونستطيع أن نلاحظ ذلك من خلال التسلسل الزمني لنزول آيات عقوبة الزنا ، ففي سورة النساء لم تفرض عقوبة معينة على الزناة بل عاملتهم بشيء من التخفيف كما إنها أوجبت وجود أربعة شهداء عليهم وهذا ما لا يحدث إلا نادراً ثم تدرجت إلى أن نزلت سورة النور بعد مدة بالجلد مما يدل :

على شيوعه مما يتطلب تدخل الوحي للنهي عنه كما في قوله تعالى : ﴿وَاللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاَسْتَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ۖ وَالَّذَانِ يَأْتِيَانِهَا مِنْكُمْ فَأَذُوهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ۝﴾⁽⁵⁾ .

(1) المصدر نفسه ، ص 74 .

(2) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص 223 ؛ القرطبي ، تفسير ، 158/2 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 1/564-565 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 78/28 .

(5) سورة النساء ، الآية : 15-16 .

- 2- «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّانِيَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا» (1) .
- 3- «وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ⇒ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ⇒ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ» (2) .

وقد جاءت الأحاديث النبوية لتؤكد تحريم الزنا والنهي عنه ، وفي حديث عن رسول الله (ﷺ) قال: (يا معشر المسلمين إياكم والزنا ، فإن فيه ست خصال ثلاثاً في الدنيا وثلاثاً في الآخرة ، فأما في الدنيا فزوال البها ، ودوام الفقر ، وقصر العمر ، وأما اللواتي في الآخرة ، فسخط الله جل ثناؤه ، وسوء الحساب والخلود في النار) (3) .

وعن أنس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) قال: (المقيم على الزنا كعابد وثن) (4) .

والزنى جريمة قبيحة تتنافى مع الأخلاق القويمة وبناء المجتمع الإسلامي الصالح والأسرة الصالحة لهذا جعل (ﷺ) عقوبته شديدة كما في قوله تعالى :

4- «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ...» (5) .

عن رسول الله (ﷺ) قال : (خذوا عني قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام والثيب بالثيب جلد مائة والرجم) (6) .

فيكون حد البكر مائة سوط تفرق في جميع بدنه إلا الوجه والمقاتل وهكذا الكافر والمسلم سواء عند الشافعي في الجلد والتغريب ، أما المحصن وهو المتزوج فحده الرجم بالأحجار أو ما قام مقامهما حتى يموت ، وقد رجم رسول الله (ﷺ) ماعزاً ولم يجلده (7) .

(1) سورة الإسراء ، الآية : 32 .

(2) سورة المؤمنون ، الآية : 5-7 .

(3) القرطبي ، تفسير القرطبي ، 167/12 ، ابن قيم الجوزية ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن بكر الزرعي الدمشقي ، (ت751هـ) ، أخبار النساء ، تحقيق نزار رضا ، دار مكتبة الحياة ،

(بيروت-1973) ، ص168 .

(4) المنذري ، الترغيب والترهيب ، 190/3 ، ابن قيم الجوزية ، النساء ، ص168 .

(5) سورة النور ، من الآية : 2 .

(6) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص224 ، والبكر هو الذي لم يطق زوجته بالنكاح ، المصدر نفسه ، ص224 .

(7) المصدر نفسه ، 224-225 .

وأما العبد ومن جرى عليه حكم الرق فحدهن في الزنا خمسون جلدة أي نصف حد الحر لنقصهم بالرق ، ولا يحل أن يشفع في إسقاط حد على زاني ولا غيره في الإسلام⁽¹⁾ .
والغريب في الأمر أن آية الرجم للزناة لا توجد في القرآن الكريم على الرغم من أن الرسول (ﷺ) قد أخذ بها وعاقب عليها في أيامه ولكن بحدود ضيقة .

والرمي بالزنى أمر صعب وعواقبه وخيمة على الأسرة والمجتمع ، لهذا جعل عقوبته شديدة موازية للضرر الذي تسببه في حالة الكذب كما في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾⁽²⁾ .

ويذكر أن الزنا في ذلك العصر غالباً ما يكون من أولئك البغايا فحرم زواج المؤمنين منهم :
﴿الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾⁽³⁾ .

وسبب نزول هذه الآية ، كما ورد في إحدى الروايات أن رجلاً من المسلمين استأذن الرسول في الزواج من امرأة يقال لها أم مهزول كانت تسافح الرجل وتشرط عليه أن تنفق عليه وخاصة أن بعض فقراء المسلمين يتزوج المرأة منهن لتنفق عليه⁽⁴⁾ ، وقد رفض الرسول ذلك وقرأ عليه تلك الآية : ومن الآيات التي ورد فيها ذكر الزنا قوله تعالى :

6- ﴿... وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا...﴾⁽⁵⁾ .

وتذكر بعض الروايات إن السبب من وراء نزول هذه الآية ، أن مسكينة جارية عبد الله بن أبي بن سلول ، كان عبد الله بن أبي يكرهها على البغاء ، فأتت النبي (ﷺ) تشتكي ذلك وهي مسلمة⁽⁶⁾ ، فأنزلت هذه الآية .

وكن الإماء والكتاتيب أكثر تعرضاً للبغاء ، وكان اتصال الرجل بالمرأة بطرق أخرى كالدعارة كان مقصوراً على الساقطات وذوي المجانة من الشباب وقد كن يسمين ذوات الرايات لأنهن كن ينصبن على أبوابهن رايات لتدل عليهن وكن يسمين أيضاً المظلمات لأن الفتيان كانوا يتسللون إليهن في جنح الظلام⁽⁷⁾

(1) المصدر نفسه ، ص 25 .

(2) سورة النور ، الآية : 4 .

(3) سورة النور ، الآية : 3 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 71/18 .

(5) سورة النور ، من الآية : 33 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 132/18 .

(7) الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص 219 .

، ومن أنواع الزنى الأخرى هي السفاح واتخاذ الأخدان ، وتذكر الروايات انه كان من العادات الشائعة في الجاهلية أن يتخذ الرجال خليات وان يتخذ النساء أخلاء بدون عقد وخاصة لغير المتزوجين وقد نهى (ﷺ) في كتابه العزيز عن المسافحة والأخدان وخاصة في الإماء والكتابيات ، حيث كان البغاء مُستساغاً بالنسبة إليهن كذلك التخادن والمسافحة معهن⁽¹⁾ ، لهذا لم يشجع القرآن الكريم الزواج منهن إلا في حالة الضرورة : «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أَحْصَيْتُمْ أَنْتُمْ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْزُرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ»⁽²⁾ .

وقوله تعالى : «الْيَوْمَ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتِ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ...»⁽³⁾ .

الزواج :-

شرع الإسلام الزواج لأنه الطريق الصحيح لإنشاء الأسرة وحفظ الجنس البشري عن طريق الإنجاب وتوجيه الغريزة الجنسية بمكانة يسموا بها عن الغريزة الحيوانية ويوفر الاستقرار لكلا الجنسين .

والزواج هو الارتباط بين اسر متفرقة لاسيما إذا تعددت الزوجات للرجل وصار لهن أبناء وبنات مما يكون من وراء ذلك من فوائد شاملة ومنافع جمة من اقلها الارتباط الأسري والقبلي وتقارب أهل المدن والقرى وكذلك الديانات ومن هنا تأتي هذه الرابطة الإنسانية التي جعل بها أبناء الجنوب أخوة وأصهار لأبناء الشمال فتكثر بذلك القبائل والعشائر وتعظم البيوتات وتحل الخصومات ، وهذا هو المنهاج الحضاري الذي تولاه الإسلام⁽⁴⁾ .

(1) دروزة ، عصر النبي ، ص145 ، والمسافحة هي قضاء الشهوة الجنسية بدون عقد شرعي ، المصدر نفسه ، ص145 .

(2) سورة النساء ، الآية : 25 .

(3) سورة المائدة ، من الآية : 5 .

(4) جلال الحنفي ، الحضارة الإسلامية من خلال الآي القرآني ، ص155 .

وقد جعل الإسلام الزواج آية من آيات الله القائل جل جلاله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً...﴾ (1) .

لأن المرأة يسكن إليها الرجل يرتفق إليها ، وهي من نفسه وجنسه لأنها من نطفة رجل ، والزواج هو اقتران روح بروح (2) .

وقد صور لنا القرآن رابطة الزواج المقدسة أروع تصوير في قوله تعالى : ﴿أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ...﴾ (3) .
فكما يستر اللباس الإنسان كذلك الزواج يحفظ من الانزلاق فهو حصن للرجال وستر للمرأة كما انه سكن واستقرار تغشاه المودة وتشيع فيه الرحمة .

فهكذا تكون الأسرة التربة التي تنمو فيها شجرتها فكلما كانت التربة طيبة صالحة كانت نباتها كذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا...﴾ (4) .

لهذا حرص الإسلام على أن يكون للرجل زوجة وأولاد وحياء أسرية أمانة (5)، إن الفريضة الرئيسة للمرأة هو إنجاب الأولاد وعليها يتوقف مستقبل العشيرة ومكانة الجيل الجديد فهي قد تنجب النجباء وقادة القوم (6) .

وفي حديث من رسول الله (ﷺ) ناصحاً المسلمين : (تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأنبياء يوم القيامة) (7) .

والمرأة تقوم بدور سياسي واجتماعي أيضاً ، لأن رابطة الفرد مع عشيرة أخواله قد لا تقل قوة عن رابطة مع أعمامه ، بل أن روابط الزواج التي كانت تجري بين قبيلتين كانت بمثابة حلف بينهما ، يساعد

(1) سورة الروم ، من الآية : 21 .

(2) القرطبي، تفسيره ، 17/14 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 187 .

(4) سورة الأعراف ، من الآية : 58 .

(5) ابن الأثير ، أسد الغابة ، 3/4 ؛ البخاري ، صحيح ، 6731/2 ؛ مسلم ، صحيح مسلم ، 1018/2 ، حيث توجد عدة أمثلة على

تشجيع الإسلام للزواج .

(6) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 142/1 .

(7) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 338/9 .

كل منهما الآخر في الشدائد⁽¹⁾ ، وقد نصح رسول الله (ﷺ) المسلمين قائلاً : (تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا إليهم تابعهم)⁽²⁾ .

وقد يكون هذا التكافؤ مع عشيرة أخرى وليس في العشيرة نفسها، وقد كانت العرب تدرك إن الزواج بالأباعد أدعى إلى إنجاب النجباء من الأولاد⁽³⁾ ، لأن الزواج من الأقارب يؤصل ويورث كثيراً من الأمور البيولوجية مثل الطول والقصر والسمع والبصر واللون ... الخ ، ولكن الزواج الشائع عند العرب هو الزواج داخل العشيرة وهو أدعى إلى أن تحافظ العشيرة على انسجامها ووحدتها ، وكان يسبق الزواج عادة خطبة المرأة إلى وليها وهو أبوها أو عمها أو أخيها وتستشار المرأة عادة في الزواج ، وكان الرجل يستطيع أن يرى المرأة ويتحدث إليها سواء كان ذلك في مجتمع مكة أو المدينة ، وقد أشار إلى ذلك الجاحظ⁽⁴⁾ قائلاً : (ولم يزل الرجال يتحدثون مع النساء في الجاهلية والإسلام حتى ضرب الحجاب على أزواج النبي (ﷺ) ثم كانت الشرائف من النساء يقعدون للرجال للحديث ولم يكن النظر إلى من بعضهم إلى بعض عاراً في الجاهلية وفي الإسلام) ، وقد ظل النسب العربي أساساً في زواج الفتاة العربية أي التكافؤ الاجتماعي ، أي مراعاة أن يكون الزوج كفأً لأبنتهم ، وعلى الخطيب أن يدفع بعد الموافقة على الزواج مهراً أو قد يسمى صداقاً أو هدية ويراعى عادة في دفع المهر ومقداره باختلاف مركز الخطيب وأبيه أو الفتاة وأبيها⁽⁵⁾ ، وقد شرع الإسلام للمرأة المهر لأن أولياء النساء في الجاهلية يمنعون المرأة حقها من الصداق فكان البعض منهم يزوج أخته لرجل على أن يزوجه الآخر أخته دون أن يدفع الطرفين ما لا يذكر فنهى الإسلام عن ذلك⁽⁶⁾ ، كما في قوله تعالى : ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبَّنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾⁽⁷⁾ .

وقد أكد الإسلام ورسوله على عدم المغالاة في المهور قائلاً : (أعظم النساء بركة أيسرهن صداقاً)⁽⁸⁾ ، ويذكر أن رجلاً طلب من الرسول أن يزوجه امرأة حضرت مجلسه فلم يكن عنده شيء يصدقه إياها فقال له رسول الله (ﷺ) ألتمس ولو خاتماً من حديد فلم يجد ، فسأله هل يحفظ شيئاً من القرآن فقال نعم ، فقال

(1) الحوفي ، الحياة العربية من الشعر العربي ، ص126 .

(2) الحاكم النيسابوري ، أبو عبد الله محمد بن عبد الله ، (ت405هـ) ، المستدرک على الصحيحين ، ط11 ، دار الكتب العلمية ، (بيروت-1990) ، تحقيق مصطفى عبد القادر ، ج20 ، ص194 ؛ ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، 633/1 .

(3) صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 142/1 .

(4) رسائل الجاحظ ، كتاب القيان ، 149/2 .

(5) الحوفي ، الحياة العربية من الشعر العربي ، ص149 .

(6) الطبري ، تفسير الطبري ، 583/4 .

(7) سورة النساء ، الآية : 4 ، والنحلة في كلام العرب الواجب ، وهو الفريضة في الإسلام ؛ ينظر الطبري ، تفسيره ، 583/4 .

(8) الحاكم النيسابوري ، المستدرک على الصحيحين ، 194/20 .

رسول الله : قد انكحتكها بما معك من القرآن⁽¹⁾ ، وإن بعض الصحابة قد دفع صداقاً لامرأة من قومه مائتي درهما⁽²⁾ .

وقد حرم الإسلام زواج المشركات كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾ (3).

كما وحرم الإسلام سلسلة من المحرمات من النساء كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ۚ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِنْ لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ۝ (4) .

ونهى رسول الله (ﷺ) أن تنكح المرأة على عمتها أو خالتها ، والعمة على بنت أخيها والمرأة على خالتها أو الخالة على بنت أختها ولا تنكح الصغرى على الكبرى والكبرى على الصغرى (5) .

ولما كان من شروط الزواج الإعلان والإشهار فقد أباح الإسلام إقامة الأفراح وحفلات الغناء التي لا تشغلهم عن الصلاة وذكر الله وكذلك ولائم الأعراس من غير بذخ⁽⁶⁾ .

وتذكر الروايات أن رجلاً في المدينة أولم لسبعة أيام⁽⁷⁾ ، ومن العبارات التي كان الرسول يحبذ قولها في الأعراس : (اللهم بارك لهم وبارك عليهم)⁽⁸⁾ ، ويتعاون الزوجان في العناية بالأسرة والحقوق والواجبات

(1) مالك بن أنس ، الموطأ ، 526/2 .

(2) ابن إسحاق ، السيرة ، 4/1045 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 221 .

(4) سورة النساء ، الآية : 22-23 .

(5) ابن الجارود ، عبيد الله بن علي النيسابوري ، (ت307هـ) ، المنتقى لأبن الجارود ، ط1 ، تحقيق عبد الله عمر البارودي ، مؤسسة

الكتاب التعليمية ، (بيروت-1988) ، ج 1 ، ص 172 .

(6) ابن سعد ، الطبقات ، 21/8 .

(7) المصدر نفسه ، 121/7 .

(8) ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، 5614/1 .

كما جاء في قوله تعالى :
 ﴿...وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ (1) .

وتقع على عاتق الرجل في الأسرة حق الرعاية وحماية الأسرة والنفقة على الأم والأطفال وحق الأطفال على الأبوين النسب والإنفاق عليهم وعلى الأم الرعاية وإرضاعهم وإذا ما وقع الفصال كان حق الحضانة للام حتى يبلغ الأطفال السن التي تغنيهم عن الحضانة ، كما جاء في قوله تعالى :
 ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا...﴾ (2) .

وقوله تعالى : ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ...﴾ (3) .

والرضاعة من واجب الأم ومن المعروف عن العرب إنها كانت تطيل فترة الرضاعة من عام إلى عامين (4) ، وتشير الآية الأولى فترة الاسترضاع للأطفال من غير الأم وهذه العادة كانت سائدة عن عرب الحضر يسترضعون أولادهم في البوادي حيث يأخذون اللهجة العربية الفصحى بعيداً عن لهجات المدن وحيث الهواء النقي والصحي ، والآية التالية تشير إلى ذلك كما جاء في قوله تعالى : ﴿...وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ...﴾ (5) .

وتذكر المصادر إن التزاوج كان قائماً بين اليهود والعرب وذلك لأن بعض اليهود كانوا من اصل عربي مما يساعد على تحطيم القيود التي تحول دون زواج اليهود بالعربيات وبالعكس (6) ، ولم يكن ذلك مقتصرًا على يثرب فقد ساد أيضاً في قريش الزواج بالكتابيات والأجنبيات وقد حل الإسلام زواج الكتابيات (7) ، وقد تزوج رسول الله (ﷺ) صفية بنت حيي بن اخطب النضري ، وكانت تحت رجل من يهود خيبر يقال

(1) سورة البقرة ، من الآية : 228 .

(2) سورة البقرة ، من الآية : 233 ، وحولين سنتين من طعام وشراب وملبس ومسكن يوفرها ولي الطفل للأم في حالة حدوث الطلاق للعناية بالطفل ؛ الطبري ، تفسيره ، 490/2-495 .

(3) سورة لقمان ، من الآية : 14 ، وسورة الاحقاف ، من الآية : 14 قوله تعالى : (وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا...) .

(4) الطبري ، تفسيره ، 490/2-495 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 233 .

(6) جواد علي ، المفصل ، 21/6 .

(7) ابن حبيب ، المنمق ، ص503 ، مثال ذلك سورة المائدة ، الآية : 5 التي وردت في الفصل الثاني، العناصر السكانية في المدينة ، ص173.

له : سلام بن مشكم القرظي ، ثم خلف عليها كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق ، وبعد أن قتل زوجها وسبي أهلها تزوجها الرسول ، وقد توفيت سنة ست وثلاثين للهجرة⁽¹⁾ .

وتزوج كذلك بمارية القبطية المسيحية التي أهداها له المقوقس⁽²⁾ ، ومن العادات التي كانت سائدة في مجتمع المدينة وهو اعتزال الحائض حيث لا يجالسن ولا يواكلن حتى يتطهرن ويستفاد من أقوال المفسرين والرواة أن هذه العادة كان قد أخذها أهل يثرب من اليهود حيث تغزل الحائض عن سائر أفراد العائلة ، ولازال السامريون : وهم طائفة من الإسرائيليين أو اليهود ويتمسكون بالتوراة دون التلمود ويأخذون أنفسهم على هذه الشريعة⁽³⁾ .

وبين (⇒) لهم في كتابه العزيز عدم اعتزالهن وإنما تجنب جماعهن في المحيض فقط لما له من مضار على الطرفين⁽⁴⁾ ، كما في قوله تعالى : «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ...»⁽⁵⁾ .

ومن العادات التي كانت سائدة عند العرب ، أن تلتزم الزوجة التي يتوفى عنها زوجها الحداد حولاً كاملاً فلا تخرج من بيتها ولا تعرض نفسها للزواج ولا يتعرض لها الغير ولا تتطيب ولا تلبس الثياب المفرحة ولا تنزين طول السنة ويسمى ذلك عدة الحداد⁽⁶⁾ .

وقد شرع الإسلام وجوب الإنفاق على الزوجة المتوفى عنها زوجها من مال الزوج طول الحول ولا يحق للورثة إخراجها من بيتها ، وتخفيفاً عنها بحيث لا يكون عليها حرج إذا خرجت من بيت زوجها المتوفى قبل انقضاء العام⁽⁷⁾ ، جعل عدتها أربعة اشهر وعشراً وكما جاء في قوله تعالى : «وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا...»⁽⁸⁾ .

ويذكر أن المرأة في الجاهلية إذا مات زوج أحدها لبست اظمار ثيابها وجلست في أحسن بيوتها فإذا حل عليها الحول أخذت بعة فدرجتها على ظهر حمار وقالت قد حلت⁽⁹⁾ .

(1) ابن قتيبة ، المعارف ، 138 .

(2) القرماني ، أخبار الدول ، ص 88-89 .

(3) دروزة ، عصر النبي ، ص 141 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 381/2 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 222 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 513/2 .

(7) دروزة ، عصر النبي ، ص 141 .

(8) سورة البقرة ، من الآية : 234 .

(9) مالك ، الموطأ ، 597/2 ؛ الطبري ، تفسير الطبري ، 513/2 .

وكان من الشائع أن يتزوج الرجل زوجة أبيه المتوفى وحرم الإسلام ذلك موضحاً هذا بقوله تعالى :
«وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ
فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا» (1) .

وفي رواية عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يحرمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين
الأختين وهذه من الانكحة الفاسدة في الإسلام (2) .

وتذكر الروايات أن هذه الآية نزلت في كبيشة بنت معن بن عاصم بن الاوس توفي عنها زوجها أبو
قيس بن الاسلت فجنح عليها ابنه فجاءت إلى رسول الله (ﷺ) تشكو له ذلك قائلة : (يا رسول الله لا أنا
ورثت زوجي ولا أنا تركت فانكح) فأُنزل (ﷻ) هذه الآية تشريعاً لهذا الأمر .

وقد فرق الإسلام بينهم (3) ، وكان ابن الزوج يتزوج زوجة أبيه المتوفى دون مهر ، وكانت هذه
العادة وسيلة يتخذها الولد الوارث لحجز زوجة أبيه عن الزواج أو حملها على التنازل عن حقوقها في
الميراث .

وقد حرم الإسلام أنواعاً كثيرة من الانكحة التي كان معمول بها في المجتمع الجاهلي منها : زواج
الاستبضاع (4) ، وزواج الرهط ، وزواج المخادنة (5) .

حيث كان أهل الجاهلية يحرمون ما ظهر من الزنا ويستحلون ما خفي ، كما جاء في قوله تعالى :
«... وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ...» (6) .

ونكاح البغايا : اللاتي يضعن على أبوابهن الرايات لتكون علماً ، وهن اللواتي يجتمع عليهن الناس
للزنى (7) ، ونكاح المقت : أي زواج الابن لامرأة أبيه إذا طلقها أو مات عنها (8) ، وزواج المتعة ، ولا بد من
الإشارة بهذا الصدد إلى ما ورد في زواج المتعة (*) فهناك جدل كبير حول إباحته أو تحريمه من قبل الفقهاء

(1) سورة النساء ، الآية : 22 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 660/4 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 660/4 ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ص 325-326 .

(4) ولمزيد من الاطلاع ينظر: ابن منظور ، لسان العرب ، 14/8 ، مادة بضع ، هذه الانكحة لم تكن شائعة فهي فردية وتكاد
تكون ضيقة واردنا هنا الاستعراض فقط .

(5) المصدر نفسه ، 139/13 ، مادة خدن .

(6) سورة الأنعام ، من الآية : 151 .

(7) الرازي ، أبو عبد الله محمد بن عمر ، (ت545هـ) ، التفسير الكبير ، المطبعة البهية ،

(مصر-1938هـ) ، 151/11 .

(8) القرطبي ، تفسيره ، 104/5 .

(*) زواج المتعة : هو زواج لأجل معين يتفق عليه الزوجان فإذا ما انتهى فارق كل منهما رفيقه . ينظر: دروزة ، عصر النبي ،
ص 143-144 .

والمذاهب الدينية فمن المعروف أن الرسول (ﷺ) قد أباحه في حالتين وظروف اقتضت ذلك في غزوة بني المصطلق وفي فتح مكة لثلاثة أيام فقط ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في قوله تعالى :
 «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كِتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَاضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ...» (1) .

ولم نسمع أو نقرأ أمثلة على وجود زواج المتعة في مجتمع المدينة ، وإنما ذكرت هاتان الحالتان خارج المدينة وفي ظروف الحرب ، ويبدو أنها أبطلت فيما بعد لانتفاء الحاجة ، وقد شدد الخليفة عمر بن الخطاب على تحريمها (2) .

ومن الانكحة الأخرى التي نهى عنها الإسلام ، هو زواج الشغار : وهو أن يزوج الرجل ابنته أو أخته إلى رجل على أن يزوجه الآخر أخته أو ابنته دون صداق أو بصداق قليل ويسمى شغار لقبحه وقد حرم القرآن ذلك (3) ، وزواج المضادة وزواج المساهاة (4) ، وزواج الإماء وزواج السبايا (5) ، وقد حرم الإسلام هذه الانكحة .

وكان تعدد الزوجات منتشراً في الجاهلية فكان الرجل منهم يتزوج نساء كثرات بلا حدود ولا قيود ، حيث يجمع الرجل العديد من النساء ، فلما جاء الإسلام حدد عدد الزوجات بأن لا يزيد على أربعة نساء كما جاء في قوله تعالى : «...فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ...» (6) .

وفي رواية عن قيس بن الحرث الاسدي انه قال : أسلمت وكان تحتي ثمان نسوة فأخبرت الرسول (ﷺ) فقال اختر منهن أربعاً وخل سائرهن ففعلت (7) .

وتعدد الزوجات تقليد متبع عند معظم الشعوب القديمة البدائية ، والغرض منه تكثير عدد الأبناء ، وتزويج النساء غير المتزوجات في المجتمع الذي يزيد فيه عدد النساء على الرجال ، وتعدد الزوجات قد يحل مشكلة العقم من جهة المرأة فبدلاً من أن يطلقها يستطيع أن يحتفظ بها ويتزوج معها امرأة أخرى .

(1) سورة النساء ، من الآية : 24 .

(2) دروزة ، عصر النبي ، ص 143-144 ؛ صالح احمد العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 146/1 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 242/4 .

(4) ابن منظور ، لسان العرب ، 266/3 ، 408/14 .

(5) ابن حبيب ، المنق ، ص 503-504 ؛ القرطبي ، تفسير القرطبي ، 94/5 .

(6) سورة النساء ، من الآية : 3 .

(7) أبو داود ، سنن أبو داود ، 224-242 ، باب الطلاق .

والمعروف أن نساء يثرب كن مشهورات بالغيرة والأنفة لحد جعل رسول الله (ﷺ) يحجم عن الزواج منهن ، لان الواحدة منهن لا تتحمل أن يكون لها ضرائر حتى أن الروايات تتفق بان الرسول لم يتزوج امرأة من الأنصار (1) .

لقد كرم الإسلام الوالدين وجعلهما في أعلى المراتب ، وحث الأبناء على طاعتهما وامتنال اوامرهما إلا في معصية الخالق كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذِّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۝﴾ (2) .

﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبُهُمَا مَعْرُوفًا...﴾ (3) .

هكذا أمر الله (ﷻ) رد الجميل بالمعروف إلى الوالدين عند ضعفهما وكبر سنهما وهما بأمس الحاجة إلى هذه الرعاية ، وكذلك أمر (ﷻ) بالإنفاق عليهما : ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ...﴾ (4) .

وقوله تعالى : ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ...﴾ (5) .

وهنا جعل (ﷻ) طاعة الوالدين بعد عبادة الله دلالة على منزلتهما عنده سبحانه وضرورة الإحسان لهما ، لهذا جعل (ﷻ) لهما نصيباً من تركة أولادهم كما جاء في قوله تعالى في أية المواريث : ﴿... وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ...﴾ (6) .

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 79-78/1 .

(2) سورة الإسراء ، الآية : 23-24 .

(3) سورة لقمان ، من الآية : 15 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 215 .

(5) سورة النساء ، من الآية : 36 .

(6) سورة النساء ، من الآية : 11 .

وفي رواية أخرى اقبل رجل إلى النبي (ﷺ) فقال : أبايعك على الهجرة والجهاد ابغني الآخرة من الله تعالى ، فسأله رسول الله : فهل من والديك أحد حي ؟ قال نعم : فقال : ارجع إلى والديك فأحسن صحبتهما(1) .

وللمحافظة على العدالة في المجتمع وعلى أواصر المحبة وحفظ الحقوق أوصى باليتامى ممن فقدوا آباءهم ولم يبلغوا سن البلوغ فهؤلاء كانوا بحاجة إلى الرعاية والحنان وكذلك المحافظة على حقوقهم وأموالهم ، وخاصة عند الزواج من يتامى النساء ، فقد أوصى القرآن بالبر بهم وحسن المعاملة في أكثر من آية وخاصة في سورة النساء كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ...﴾ لا(2).

لأن في المجتمع الجاهلي كانوا لا يورثون الصغار من الذكور ولا البنات(3) ، ويذكر إن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) كان إذا جاء ولي اليتيمة فإن كانت جميلة وغنية قال لوليها زوجها غيرك والتمس لها من هو خير منك ، وإذا كانت بها دمامة ولا مال قال عمر لوليها تزوجها فأنت أحق بها(4) .

وقد الزم القرآن الكريم إعطاء اليتامى حقوقهم والمحافظة عليها وقد جاء ذلك بصيغة الأمر : ﴿وَأَتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوباً كَبِيراً﴾ ⇒ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ... لا(5) .

وفي رواية عن عائشة (رضي الله عنها) عن هذه الرواية قالت : إنها نزلت في اليتيمة تكون عند الرجل وهو وليها وليس لها ولي غيره ، ولا أحد ينازعه فيها ولا ينكحها لمالها ، فيضربها ويسيء صحبتها(6) .

(1) النووي ، رياض الصالحين ، 189/1 .

(2) سورة النساء ، من الآية : 127 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 304-303/5 ، والقسط : العدل ، ينظر ، المصدر نفسه .

(4) الطبري ، تفسيره ، 306 - 305/5 .

(5) سورة النساء ، الآية : 2 ، ومن الآية : 3 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 4577/4 .

وقوله تعالى : ﴿... وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ...﴾ (1) .

وقد صور (⇒) كيفية التعامل مع اليتيم والرأفة به كما في قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ
فَلَا تَقْهَرْ﴾ (2) .

وصور سوء المعاملة ونهى عنه بقوله تعالى : ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ
فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ (3) .

وفي حديث عن رسول الله (ﷺ) قال : (أنا وكافل اليتيم في الجنة ، هكذا وأشار بالسبابة والوسطى
وفرج بينهما شيئاً) (4) .

أما الطلاق فقد عرفه العرب في جاهليتهم ، وكانت المرأة تنفر منه ، وكان الطلاق عادةً بيد الرجل
إلا إذا اشترطت المرأة أن يكون لها ذلك ومن هؤلاء سلمى بنت عمرو نساء بني النجار وهي أم عبد
المطلب (5) .

وكان الطلاق يتم بالاتفاق بين الزوج وأبي الزوجة لكي يسترد الزوج الصداق ولكن الزوج أحق
بمطلقاته من غيره (6) .

والطلاق في الشرع هو حل عقدة التزويج (7) ، وقد أباح القرآن الكريم الطلاق لحكم كثيرة منها عدم
تعطيل النسل إذا ما كانت المرأة عقيمة أو لسوء خلقها أو عدم الانسجام بين الطرفين بحيث لا يستطيع
الزوج الاستمرار على معاشرة زوجته .

إذن شرع (⇒) الطلاق لحفظ كيان الأسرة ، ولكن جعله (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) (8) ، بعد
الموعظة الحسنة والهجر والضرب غير المبرح ثم محاولة الإصلاح بواسطة أقارب الزوجين ، كما جاء
تفصيلها في القرآن : ﴿...وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي

(1) سورة البقرة ، من الآية : 177 .

(2) سورة الضحى ، الآية : 9 .

(3) سورة الماعون ، الآية : 1-2 .

(4) الشيباني ، أبو بكر أحمد بن عمر بن الضحاك ، (ت287هـ) ، الأحاد والمثاني ، ط1 ، تحقيق د. باسم فيصل أحمد ، دار الحرية ،

(الرياض-1991) ، ج2 ، ص127 .

(5) ابن سعد ، الطبقات ، 78/1-79 .

(6) صالح أحمد العلي ، محاضرات في التاريخ ، 147/1 .

(7) بطرس البستاني ، محيط المحيط ، 1290/2 .

(8) أبو داود ، سنن أبي داود ، 503/1 ؛ ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، 650/1 .

الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ⇒ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (1) .

والطلاق في الجاهلية وفي الإسلام لم يكن له عدد معين ، يطلق الرجل امرأته ما شاء من الطلاق ، وفي رواية عن عروة بن الزبير كان الرجل يطلق ما شاء ثم إن رجع امرأته قبل أن تنقضي عدتها كانت امرأته ، حتى إذا كان يوماً غضب رجل من الأنصار على امرأته فقال لها : لا أقر بك ولا تحلين مني قالت له كيف ؟ قال أطلقك حتى إذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك فإذا دنا أجلك رجعتك فشكت ذلك إلى رسول الله (ﷺ) (2) ، فنزل قوله تعالى رافعاً ما يقع على المرأة من حيف فجعل : «الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَجِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا إِلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» (3) .

وفي رواية عن ابن عباس أن سبب نزول هذه الآية إن أخت عبد الله بن أبي ابن سلول أتت رسول الله وشكت له حالها مع زوجها وقالت : يا رسول الله لا يجمع رأسي ورأسه شيء .

ويذكر انه رفع جانب الخباء فرأيته أقبل في عدة فإذا هو أشدهم سوء وأقصرهم قامة وأقبحهم وجهاً ، فقال زوجها : إني أعطيتها أفضل مالي حديقة فلتردها علي ، فقبلت بذلك ، ويذكر أن هذا أول خلع في الإسلام (4) ، خوفاً على المرأة من النشوز ، فأन طلق الرجل المرأة ثالثة تطليقة بعد الطلقتين فلا يحل له بعد ذلك إرجاعها إلا بعقد جديد ، حيث تتزوج رجلاً غيره ، لينق وبال أمره وعاقبة طلاقه (5) .

كما جاء في قوله تعالى : «إِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ...» (6) .

(1) سورة النساء ، من الآية : 34-35 .

(2) الطبري ، تفسره ، 456/2 .

(3) سورة البقرة ، الآية : 229 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 461/2 .

(5) الزمخشري ، الكشاف ، 275/1 .

(6) سورة البقرة ، من الآية : 230 .

وقد يخطب الرجل زوجته المطلقة بعد عودتها مع الخطاب فيرفض وليها تزويجها له فسمح الإسلام بذلك إذا اتفق الاثنان ويذكر أن هذه الآية نزلت في معقل ابن يسار وزوجته⁽¹⁾ ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ...﴾⁽²⁾ . وقوله تعالى : ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَاراً لِيَتَّعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ...﴾⁽³⁾ .

حيث كان يضار بالمرأة في الطلاق واتخاذ سبيل لمضرتها والحيف بها فحرم ذلك الشرع⁽⁴⁾ .
ويبدو أن المرأة في الجاهلية وفي الإسلام ، كان ينزل بها حيف كبير في الطلاق وللتوكيد على تقوى الله في طلاق المرأة ومعاملاته الزوجية انزل (ﷻ) على لسان رسوله سورة الطلاق ، والقرآن شرع الطلاق لضرورة قائمة لا لهوى النفس ولا لغاية مرغوبة ، فهو شرع للبناء لا للهدم وللعديل وليس للظلم ، ولذلك كان علاجاً شافياً ، وكانت المرأة تطلق في الجاهلية من غير عدة ، ولكن الإسلام شرع ذلك استبراءً لرحم المرأة وحتى لا تخط الأنساب ، وهي ثلاث حيضات وأمر (ﷻ) الزوج أن يطلق زوجته لطهرها من الحيض طاهرة من غير جماع⁽⁵⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ...﴾⁽⁶⁾ .

وتذكر الروايات أن هذه الآية نزلت عند تطليق الرسول (ﷺ) حفصة بنت عمر تطليقة واحدة فأمر (ﷻ) بإرجاعها لأنها صوامة قوامه وأنها من نسائك في الجنة⁽⁷⁾ ، وكذلك أمر (ﷻ) بحفظ مدة العدة وكذلك بعدم إخراج المطلقة من بيتها قبل انقضاء عدتها ، وأوجب على الزوج النفقة عليها في عدتها وقوله تعالى : ﴿وَاللَّائِي يَئْسَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ

(1) الطبري ، تفسيره ، 484/2 .

(2) سورة البقرة ، من الآية : 242 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 231 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 456/2 ، 484/2 .

(5) المصدر نفسه ، 131/28-134 .

(6) سورة الطلاق ، من الآية : 1 .

(7) الطبري ، تفسيره ، 131/28-134 .

ثَلَاثَةَ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَاتِ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا (1) .

أما إذا كانت الزوجة كبيرة السن ممن إنقطع عنهم الحيض أو إذا كانت صغيرة السن لم تحض مما يدعو للشك في الحالتين فعدتهن ثلاثة اشهر ، وعدة الحامل إلى أن تضع حملها (2) ، حيث كانت المرأة قبل نزول هذه الآية تكتم ما حملت في بطنها عند الطلاق خوفاً من مراجعة زوجها لها حتى تتزوج غيره فيلحق المولود بنسب الزوج الجديد ، فحرم (⇒) بقوله : «وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ...» (3) .

وكان هناك نوع آخر من الطلاق في الجاهلية والإسلام قبل نزول تحريمه يسمى الظهار : وهو أن يقول الرجل لزوجته أنت علي كظهر أمي أو أختي فتحرم عليه (4) ، وهذا قول زور ومنكر حرمه الإسلام ولم يجعله طلاقاً وفرض عقوبته عليه كما جاء في قوله تعالى : «الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُم مِّن نِّسَائِهِمْ مَا هُنَّ أُمَّهَاتُهُمْ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوءٌ غَفُورٌ ⇒» وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا ذَلِكَ تَوْعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ⇒ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَا فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (5) .

وقوله تعالى : «... وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمْ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ...» (6) .

وسبب نزول هذه الآية أن اوس بن الصامت ظاهر زوجته خولة بنت ثعلبة وجاءت إلى رسول الله تشتكي إليه ما أصابها من حيف حيث تزوجها اوس وهي شابة مرغوب فيها وظاهرها لما كبر سنهما وكثر عيالها فجعلها كأمه ولها صبية صغار ، إن ضمتهم إليه ضاعوا وإن ضمتهم إليها جاعوا (7) ، فلم يكن عند

(1) سورة الطلاق ، الآية : 4 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 144/28 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 228 .

(4) احمد صالح العلي ، محاضرات في تاريخ العرب ، 148/1 .

(5) سورة المجادلة ، الآية : 2-4 .

(6) سورة الأحزاب ، من الآية : 4 .

(7) الرازي ، التفسير الكبير ، 108/8 ؛ القرطبي ، تفسير ، 102/3 .

الرسول جواب لها حتى نزل قوله تعالى حسماً لأمرها وشرعاً يعمل به ، وهناك أيضاً نوع آخر من الطلاق ويسمى الإيلاء : وهو الامتناع باليمين عن وطئ الزوجة ، فكان الرجل في الجاهلية يحلف أن لا يلمس امرأته لسنة أو سنتين ، والقصد منها للإضرار بها فيتركها معلقة لا هي زوجة ولا هي مطلقة فأنكر الإسلام هذا التعليق وجعل أجلاً بذلك محدداً بأربعة أشهر لا يحق له الزيادة على ذلك ، فأما أن يفيء وأما أن يطلق وان أبي طلق عليه الحاكم (1) .

وقد صور لنا القرآن ذلك بقوله تعالى : «الَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ⇒ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (2) .

وإذا أراد الرجل الرجوع إلى زوجته فيكون عليه كفارة اليمين للقادر إذا انقضت أربعة أشهر (3) . وقد حرّم الإسلام زواج المسلمة بالمشرك ، وأباح لها الطلاق منه إذا كان زوجها على الكفر ، وحينما هاجرت بعض نساء مكة من المسلمات إلى المدينة دون رضا أزواجهن وأولياء أمورهن بعد صلح الحديبية ، كان من المفترض أن يردن إلى أولياء أمورهن ، ولكن الرسول (ﷺ) امتنع عن ذلك مكتفياً برد صداقهن ولم يلتزم بشروط صلح الحديبية (4) ، وكما جاء في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتَوْهُنَّ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا...» (5) .

الأخلاق والآداب العامة في مجتمع المدينة :

كان المجتمع الإسلامي في المدينة النواة الأساسية التي تشكل على ضوئها بناء المجتمع الإسلامي الكبير .

لهذا نرى قيامه على جملة أسس ومعايير خلقية وسلسلة من الآداب العامة والصفات الخلقية السامية التي كان يتحلى بها مجتمع المدينة أيام الرسول (ﷺ) ، والتي أصبحت فيما بعد مثلاً يحتذى به المسلمون في كل زمان ومكان .

(1) الزمخشري ، الكاشف ، 269/1 .

(2) سورة البقرة ، الآية : 226-227 .

(3) الزمخشري ، الكشاف ، 269/1-270 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 82-70/28 .

(5) سورة الممتحنة ، من الآية : 10 .

فالآيات الكريمة التي نزلت في صفات المؤمن في المدينة لم يبطل حكمها ، ولم تكن تخص مجتمع المدينة فحسب وإنما كانت موجهة لكل المسلمين ، وأصبح جيل الصحابة الذين خاطبهم القرآن الكريم قدوة للأجيال كمثل أعلى حتى أصبحت الأمة الإسلامية بهذا الخلق الرفيع خير أمة أخرجت للناس مقرونة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله ومعرفة سبيل الخير والشر وكما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (1) .

والخلق في اللغة : هو السجية والطبع والعادة وتأتي بمعنى الفطرة وخالقهم أي عاشرهم بخلق حسن ، والخلق هي طيب أكثر أجزائه من الزعفران (2) .

و(⇒) يحب ويدعو إلى مكارم الأخلاق ويكره سمانقها(3) ، وفي حديث عن الرسول الكريم (ﷺ) قال : (أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم خلقاً) (4) .

وعرّف الإمام الغزالي(5) الأخلاق قائلاً : (هي هيئة للنفس راسخة تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية) .

وتعرف الخلق أيضاً : أنها صفة نفسية ، لا شيء خارجي ، أما مظهر الخلق الخارجي فيسمى سلوكاً أو معاملة(6) .

ويذكر الثعالبي إن أحسن آية جمعت مكارم الأخلاق في كتابه العزيز قوله تعالى : ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ⇒ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ(7) .

وقال ابن عباس : أن الله (ﷻ) أمره في هذه الآية (بالصبر عند الغضب والحلم عند الجهل والعفو عند الإساءة فإذا فعل المؤمنون ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم)(8) .

(1) سورة الإنسان ، الآية : 3 .

(2) وجدي ، محمد فريد ، دائرة المعارف القرن العشرين ، ط3 ، دار المعرفة ، (بيروت-1971) ، ج3 ، ص 77 .

(3) ابن تيمية ، احمد بن عبد الحليم الحراني ، (ت728هـ) ، الاستقامة ، ط1 ، تحقيق : د. محمد رشاد ، جامعة محمد بن سعود ، (المدينة المنورة-1403هـ) ، ج2 ، ص 437 .

(4) الترمذي ، سنن الترمذي ، 466/3 .

(5) أبي حامد محمد بن محمد ، (ت505هـ) ، إحياء علوم الدين ، ط1 ، مطبعة البابي وأولاده ، (مصر-1939) ، ج3 ، ص 68 .

(6) أمين ، احمد ، كتاب الأخلاق ، ط3 ، دار الكتب المصرية ، (القاهرة-1925) ، ص 71 .

(7) سورة فصلت ، الآية : 34-35 .

(8) الثعالبي ، عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف ، الجواهر الحسان في تفسير القرآن ، تفسير (الثعالبي) ، مؤسسة الاعلمي ، (بيروت-د.ت) ، ج4 ، ص 92 .

لقد جمع (⇒) الأخلاق وضمها إلى بعض في صاحب الرسالة الإسلامية سيدنا محمد (ﷺ) ليكون قدوة لنا ومثلاً يحتذى به كما جاء في قوله تعالى : (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ...) (1) . وهو الذي شهد له (⇒) بعظم الحلق والتزكية المطلقة بلا مجاملة ترمي إلى غاية ، كما جاء في قوله تعالى : «وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» (2) ، وعن رسول الله (ﷺ) قال : (ثم بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) (3) .

وهكذا كان المسلمون في المدينة وفي كل بلاد الإسلام بعد ذلك يقتدوا بما جاء به القرآن الكريم من قيم خلقية كريمة ، وهذا ما أكدته رسوله الكريم في أحاديثه وفي سيرته العطرة وسيرة الصحابة والتابعين والصالحين منهم في مجتمع المدينة .

وأول قاعدة خلقية نطق بها الرسول الكريم في المدينة بعد هجرته قائلاً : (يا أيها الناس أفشوا السلام وأطعموا الطعام وصلوا الأرحام وصلوا والناس نيام وادخلوا الجنة بسلام) (4) . فالسلام عند اللقاء والمبادرة به هو من المبادئ الخلقية التي دعى إليها الإسلام وهي جزء من مبدء الدفع بالتتي هي أحسن (5) ، وكما جاء في قوله تعالى : «وَإِذَا حُيِّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ...» (6) .

وتحية الإسلام هي : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ويكون المبتدأ بالسلام أعظم أجراً (7) ، ويذكر أن عبد الله بن عمر عندما كان يمر بسوق المدينة يبتدر الجميع بالسلام فلا يرى أحداً إلا سلم عليه (8) . وصلة الأرحام تزيد من الألفة والمحبة في المجتمع ، ويذكر أن الألفة والتحاب والتآلف والتوافق والتعاون ثمرة لحسن الخلق وهو في الدين فضيلة وفي الحديث عن النبي (ﷺ) قال : (أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق ، وإن التباغض والتحاسد والتدابير من سوء الخلق وهي مذمومة عند الله) (9) .

(1) سورة الأحزاب ، من الآية : 21 .

(2) سورة القلم ، الآية : 4 .

(3) مالك ، الموطأ ، 904/2 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 235/1 .

(5) الثعالبي ، تفسير الثعالبي ، 92/4 .

(6) سورة النساء ، من الآية : 86 .

(7) أبو نعيم الاصبهاني ، حلية الأولياء ، 310/1 .

(8) النووي ، رياض الصالحين ، 36/2 .

(9) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 155/1 .

لهذا نرى أن مجتمع المدينة اتسم بالترابط والتعاون الوثيق الذي كان لحمته الإسلام ، فقد استطاع الإسلام أن يوحد المسلمين من المهاجرين والأنصار بمختلف ميولهم وعاداتهم وتقاليدهم وطباعهم تحت مظلة واحد هي الإسلام ، فالمسلم كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ (1) ، وكذلك دعى (ﷺ) المؤمنين إلى التعاون كما جاء في قوله تعالى : ﴿ ... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ... ﴾ (2) .

ويذكر أن البر هو ما أمر (ﷺ) عباده المؤمنين والتقوى هو اجتناب كل ما نهى نه (ﷺ) في كتابه العزيز (3) .

وقد حث الرسول الكريم في أحاديثه على التعاون والتآلف مصوراً لنا كيف يكون المجتمع الإسلامي بقوله : (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى) (4) ، والأمثلة في مجتمع المدينة على تعاون المسلمين وتكاتفهم كثيرة مثال ذلك : ما أبداه الأنصار من إكرام المهاجرين ومشاركتهم إياهم المأكل والمسكن .

وتذكر إحدى الروايات - أنه قدم المدينة قوم عراة مجتأبي النمار أو العباءة متقلدي السيوف عامتهم من مضر فلما رآهم رسول الله (ﷺ) تغير وجهه حزناً ، وصعد المنبر يحث المسلمين على التصديق فأسرع أهل المدينة متصدقين فمنهم من تصدق بدينار ومنهم من تصدق بدرهم ومنهم من تصدق بثوبه ، حتى تجمع عند رسول الله (ﷺ) كومين من طعام وثياب فتهلل وجه رسول الله (ﷺ) والمسلمين فرحاً لذلك (5) .

ومن مكارم الأخلاق التي دعى لها الإسلام هو العفو والتجاوز عن زلات وهفوات المسلمين وغير المسلمين والتي كان الرسول الكريم كثيراً ما يتجاوز عنها ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿ ... وَأَنْ تَغْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ... ﴾ (6) .

ومثال ذلك عفو الرسول الكريم عن أهل مكة عند فتحها على الرغم مما لقي منهم من ظلم وأذى قائلاً لهم : (أذهبوا فأنتم الطلقاء) (7) ، وكذلك عفوه عن المنافقين في أكثر من مرة .

(1) من سورة الحجرات ، الآية : 10 .

(2) سورة المائدة ، من الآية : 2 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 66/6 - 67 .

(4) مسلم ، صحيح مسلم ، 4/1999 ؛ الطبراني ، سليمان بن أحمد بن أيوب ، (ت360هـ) ، المعجم الصغير ، تحقيق محمد شكور ،

دار عمارة ، (بيروت-1985) ، ج1، ص235 .

(5) النووي ، رياض الصالحين ، 130/1 .

(6) سورة البقرة ، من الآية : 237 .

(7) ابن هشام ، السيرة ، ق2/412 .

والتربية الخلقية التي أمر بها (⇒) تبدأ من نفس المؤمن قبل مجتمعه ، وكما في قوله تعالى :
 «... إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ...» (1) .
 ف(⇒) هو الذي خلق الإنسان ووضع له المبادئ الخلقية ، وجعل سلطان الجماعة ملزمة ،
 فالمجتمع مسؤول عن انحراف الأفراد ، والمحافظة على الأخلاق العامة (2) .

ومن الخلق الكريم التي أمر به (⇒) المسلمين هي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، في قوله
 تعالى : «كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ
 الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ...» (3) .

كما جاء في الحديث النبوي الشريف : (من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه
 فإن لم يستطع فبقلبه وذلك اضعف الأيمان) (4) .

وكانت لعنة الله (⇒) لليهود وخلقهم لأنهم كانوا لا ينهون عن المنكر إذا رأوه كما في قوله تعالى :
 «الْعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ
 مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ⇒ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ
 مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (5) .

وقد حث الإسلام على التراحم والتعاطف ونبذ التخاصم والتناحر وإن يكونوا : «... أَشِدَّاءُ
 عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ...» (6) .

وعن انس (◀) عن النبي قال : (لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تقاطعوا وكونوا عباد الله
 إخواناً ولا يحل للمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث) (7) .

لقد حث القرآن الكريم على الصدق ونهى عن الكذب كما جاء في قوله تعالى:

1- «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ
 الصَّادِقِينَ» (8) .

(1) سورة الرعد ، من الآية : 11 .

(2) محمد صالح عطية ، منهج القرآن ، ص 163 .

(3) من سورة آل عمران ، من الآية : 110 .

(4) النووي ، رياض الصالحين ، 136/1 .

(5) سورة المائدة ، الآية : 78-79 .

(6) سورة الفتح ، من الآية : 29 .

(7) مالك ، الموطأ ، 506/2 .

(8) سورة التوبة ، الآية : 119 .

«إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ» (1).

وفي الحديث النبوي الشريف : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الخير وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار) (2).

وفي غزوة تبوك تخلف الكثير من المسلمين عن رسول الله (ﷺ) ومنهم شاعر الرسول كعب بن مالك ، وعند رجوع الرسول من الغزو تقدم إليه المتخلفون متذرعين بمختلف الحجج الواهية ، أما كعب فقرر أن يصدق الله ورسوله الحديث ، وعند سؤال رسول الله له عن سبب تخلفه قال : والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك ، فقال رسول الله : أما هذا فقد صدقت فيه (3) ، وعلى الرغم من مقاطعة الرسول (ﷺ) له والمسلمين لهم خمسين ليلة ، ولكن الله ورسوله تاب عنهم بعد أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت .

ومن أخلاق الإسلام الأمانة وقد حث (ﷺ) عليها في كتابه العزيز بقوله : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا...» (4).

وقد نهى الإسلام المسلمين عن الغش والخداع والاستغلال لأنها تتنافى مع الأخلاق التي أمر بها الإسلام ، كما جاء في قوله تعالى : «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» (5).

ويذكر أن الرسول (ﷺ) كان ماراً من احد أسواق المدينة فرأى صبرة طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللاً فسأل صاحبه عنه ، فأجابه قائلاً : أصابته السماء ، فطلب منه أن يضعه فوق الطعام حتى يراه المشتري ، وقال رسول الله (ﷺ) : (من غشنا فليس منها) (6) ، وحرم الإسلام كذلك التطفيف وهو البخس بالميزان والمكيال كما جاء في قوله تعالى : «وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾» (7).

(1) سورة النحل ، الآية : 105 .

(2) مالك ، الموطأ ، 989/2 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 531-537 .

(4) سورة النساء ، من الآية : 58 .

(5) سورة الأحزاب ، الآية : 58 .

(6) النووي ، رياض الصالحين ، 257/2-258 ، وصبرة الطعام يعني بها مجموعة من الطعام لا كيل لها ولا وزن ، هامش المصدر نفسه .

(7) سورة المطففين ، الآية : 1-3 .

وفي رواية عن ابن عباس أن أهل المدينة كانوا أسوأ الناس كيلاً فلما نزل قوله تعالى حسنوا كيلهم⁽¹⁾ .

ومن خلق المؤمن أن يطابق قوله فعله كما في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ⇒ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾⁽²⁾ .

وهنا يدعو (⇒) المسلمين على تطابق أعمالهم مع أقوالهم مع مكنونات صدورهم ، لهذا نرى (⇒) نهى عن النفاق وأهله لأنه من الظواهر التي برزت في المدينة كما جاء في قوله تعالى : ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾⁽³⁾ .

كره (⇒) الظلم والظالمين لهذا نهى (⇒) المسلمين عن التخلف به كما جاء في قوله تعالى : ﴿...وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نَذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً...﴾⁽⁴⁾ .

ويبدو أن من العادات الشائعة في المدينة أن يدخل الرجال إلى البيوت دون استئذان أهلها ، ويجلس الرجال والنساء معاً للسمر وكذلك السماح للخدم وملك اليمين والأولاد الدخول إلى مخادع النوم في أي وقت ، فهى الإسلام عن ذلك حتى وإن كان مخدع الأم ، وأمر بالسلام عند الدخول⁽⁵⁾ ، كما جاء في قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾⁽⁶⁾ .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ هُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾⁽⁷⁾ .

(1) ابن كثير ، تفسيره ، 483/4 .

(2) سورة الصف ، الآية : 2-3 .

(3) سورة المنافقون ، الآية : 1 .

(4) سورة الفرقان ، من الآية : 19 .

(5) الطبري ، تفسيره ، 110/18-113 .

(6) سورة النور ، الآية : 27 .

(7) سورة النور ، الآية : 58 .

وعلى الرغم من كل ذلك فقد كان بعض الأعراب يخرجون عن آداب الدخول إلى البيوت بغير استئذان .

فقد روي عن عائشة (رضي الله عنها) أنها كانت في احد الأيام مع الرسول في بيتها فدخل عيينة بن حصن الفزاري بغير استئذان ، فحين عاتبه الرسول على ذلك قال عيينة : لم استأذن على رجل من مضر منذ أدركت ، فلما خرج قالت عائشة للنبي (ﷺ) من هذا ؟ قال : (أحمق مطاع في قومه)⁽¹⁾ .

هذا ولا ننسى أن العرب في الجاهلية كانت لهم أخلاق وعادات كريمة حاول الإسلام أن يهذبها ويحث على الإبقاء عليها مادامت لا تتعارض مع روح الإسلام ولا تضره ، كالشجاعة والكرم والوفاء والعفة وغيرها من الأخلاق الحميدة .

فالكرم شيمة خلقية رافقت العربي أينما كان وفي أي بيئة نشأ وتربى وهو خلق يتبارون فيه ويفتخر به ، وهو احد الخصال التي تؤهل الفرد العربي للسيادة ، إلى أسوء الخصال هو البخل والجبن فالعربي مثلما كان شجاعاً في الحرب كان شجاعاً أيضاً في بذل المال دون أن يخشى الفقر .

ولعل شهرة حاتم الطائي في التأريخ العربي لم تكن بسبب الوقائع الحربية التي خاضها ، وإنما جاءت شهرته لكثرة بذله للمال وكرمه الذي فاق الحدود⁽²⁾ .

وقد وصف العربي في الجاهلية بأنه ذو أريحية وحساسية تسعد نفوسهم مساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، والمال في نظرهم - كما هو الحال في الإسلام - وسيلة لا غاية لتحقيق الحياة الشريفة وكسب المحامد⁽³⁾ .

فلما جاء الإسلام حث على الإكرام وإطعام الطعام وجعله صفة من صفات المؤمنين الأبرار كما في قوله تعالى : **﴿وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾**⁽⁴⁾ .

لكن الإسلام حذر من الإسراف والتبذير : **﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾**⁽⁵⁾ .

(1) السهروردي ، أبو النجيب عبد القاهر ، (ت563هـ) ، آداب المريدين ، (مخطوطة ، نسخة مصورة) ، ورقة 37أ ، ونفس الرواية نقلت عن أم سلمة زوجة النبي (ﷺ) .

(2) حاتم الطائي ، ديوانه ، تقديم : كرم البستاني ، دار بيروت ، (بيروت-1963) ، ص44 .

(3) الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص308-309 .

(4) سورة الإنسان ، الآية : 8 .

(5) سورة الإسراء ، الآية : 29 .

وكرم المؤمن عندما يتصدق وهو صحيح البدن شحيح المال ويأمل الغنى ويخشى الفقر فيتصدق بطعامه مع رغبته فيه ، وفي رواية عن ابن عباس عن احد أسرى معركة بدر ، وهم يومئذ مشركون ، ذكر فيها أن رسول الله (ﷺ) كان قد أوصى بهؤلاء الأسرى خيراً ، فكان الصحابة يقدمونهم على أنفسهم عند الطعام⁽¹⁾ ، لهذا قال (ﷺ): «إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِرِجَالِهِمُ اللَّهُ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا»⁽²⁾.

وزيادة في التواد والترحم والمحبة ، اتاح (ﷺ) الأكل من بيوت عديدة كما في قوله تعالى : «لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا...»⁽³⁾.

ويذكر أن المجاهدين في المدينة إذا كانوا في مغازيهم وتخلف عنهم أهل الزمانه عن الجهاد لترخيصه (ﷺ) بذلك ، كان المجاهد يدفع مفتاح مسكنه إلى المستخلف منهم في المدينة ، وكان الخولاف يخرجون من دخول هذه البيوت إلا بإذن كما أمر (ﷺ) ، وقد رفع (ﷺ) الحرج في هذه الآية وأذن لهم في الأكل من هذه البيوت على الرغم من غياب أهلها⁽⁴⁾.

وقد حث الإسلام على التواصل والعطف والإحسان إلى الوالدين والقربى وأوصى بالجار ، فقد جاء في الآية الكريمة بالآيمان والتوحيد: «وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ...»⁽⁵⁾.

ومنهم الجار صاحب القرابة أو الجار ذو القرابة بالإسلام والجار البعيد النسب وحتى البعيد في الدين ، والجنب في كلام العرب هو البعيد ، والصاحب بالجنب هو الرفيق في أمر حسن كالتعليم أو صناعة أو سفر⁽⁶⁾.

(1) ابن كثير ، تفسيره ، 4/454 .

(2) سورة الإنسان ، الآية : 9 .

(3) سورة النور ، من الآية : 61 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 18/71 .

(5) سورة النساء ، من الآية : 36 .

(6) البيضاوي ، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر ، (ت791هـ) ، تفسير البيضاوي ،

(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) ، تحقيق: عبد القادر عرفت ، دار الفكر ، (بيروت-1996) ، ج1 ، ص214 .

ومن مكارم الأخلاق عند العرب العفة وغض البصر عن نساء غيره ، فقد كان عنتر بن شداد وهو شاعر جاهلي يقول :

وأغض طرفي ما بدت لي جارتني حتى يُؤاري جارتني مأواها⁽¹⁾

وقد أكد الإسلام على العفة وغض البصر وأمر المؤمنين والمؤمنات التحلي بهما : «أَقُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ» ⇒ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...»⁽²⁾ .

وقد كان من عادة أهل المدينة الجلوس في الطرقات فأمرهم رسول الله (ﷺ) بإعطاء الطريق حقه فسألوه : ما حقه ؟ فقال : (غَضُّ البصر وكف الأذى ، وردُّ السلام ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)⁽³⁾ .

وقد كان للعرب الكثير من العهود والمواثيق والمحالفات يتشددون في الالتزام بها والإبقاء عليها ويعدون ذلك من مكارم الأخلاق التي يعتزون بها وقد كان لهذه الأحلاف قدسية ومكانة كبيرة ، وكان بعض هذه المواثيق والعهود تُعلق في جوف الكعبة⁽⁴⁾ .

وقد تستمر هذه المحالفات من جيل إلى آخر ، كما كانت أحلاف الأوس والخزرج مع القبائل اليهودية الثلاث في المدينة والتي عقدت منذ زمن قديم واستمرت حتى بعد إسلام الأوس والخزرج^(*) ، وفي حديث عن رسول الله (ﷺ) قال : (ما كان من حلف في الجاهلية فأن الإسلام لم يزد إلا شدة)⁽⁵⁾ .

وقد عقد الرسول (ﷺ) عدة عهود مع بعض القبائل العربية التي لم تسلم وبالخصوص القاطنة منها حول المدينة ، وعقد أيضاً الكثير من العهود بعد صلح الحديبية⁽⁶⁾ .

(1) عنتر بن شداد ، ديوانه ، ص 76 .

(2) سورة النور ، من الآية : 31 .

(3) النووي ، رياض الصالحين ، 274/2 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 130/1-134 ؛ الشريف ، مكة والمدينة ، ص 59 .

(*) وقد ذكرت الكثير من الأمثلة في هذا الموضوع ضمن عصبية التحالف القبلي ص 160 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق 132/1 .

(6) ابن سعد ، الطبقات ، 8/2 ؛ عبد البر ، الدرر ، ص 103 .

وقد أمر القرآن الكريم الوفاء بها والالتزام بها إلا ما حرم منها حلالاً أو حل حراماً وقد أشاد القرآن الكريم بالمؤمنين بالعهود وجعل الإيفاء بها من أخلاق المؤمن وصفاته كما جاء في قوله تعالى: ﴿... وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا...﴾ (1) .

وإتمام العهود إلى مدتها من الأمور المحببة له (⇒) وجعلها من خلق المتقين كما جاء في قوله تعالى: ﴿... فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (2) .

كما كره (⇒) خيانة العهد وأمر (⇒) على لسان رسوله الكريم إلغاء جميع العهود والمواثيق مع الكفار وإعلان ذلك في موسم الحج الأكبر ، حيث يحضر العرب من أنحاء الجزيرة العربية كافة إلى مكة للحج والتجارة ، بعد أن قدمت معظم وفود القبائل العربية معلنة إسلامها ، فكان لابد للقبائل التي لم تعلن إسلامها تحديد موقفها من الإسلام ودولته (3) ، وكان للعهود قدسيته وخاصة التي كانت تعقد عند المسجد الحرام ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿... إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (4) .

وكذلك أمر (⇒) على لسان رسوله الكريم عند الخوف من خيانة وغدر أصحاب العهود القيام بإلغاء العهد وإعلامهم بذلك ، كما فعل رسول الله (ﷺ) مع بني قريظة عند نقضهم عهدهم مع رسول الله وانحيازهم إلى المشركين وبعد توثيق الرسول من ذلك بإرسال سعد بن معاذ سيد الاوس وسعد بن عباد من بني ساعدة ابن كعب سيد الخزرج ، فنذ عهدهم وأعلمهم بذلك قبل أن يناجزهم بالحرب حتى لا يصبح هو وهم على سواء في الغدر والخيانة (5) ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿... وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ (6) .

وكره العرب الخيانة وذموها وأكد على ذلك الإسلام بقوله تعالى : ﴿... وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (7) .

(1) سورة البقرة ، من الآية : 177 .

(2) سورة التوبة ، من الآية : 4 .

(3) الشريف ، مكة والمدينة ، ص 531-532 .

(4) سورة التوبة ، من الآية : 7 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق 220-221 ؛ الطبري ، تفسيره ، 26/10-27 .

(6) سورة الأنفال ، من الآية : 58 .

(7) سورة النساء ، الآية : 107 .

ويذكر الغزالي⁽¹⁾ أن من الأخلاق المذمومة عند تعالى الكبر والعجب ، كما جاء في قوله تعالى :
«وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ» (2) .

ويذكر أيضاً من الاخلاق المذمومة الحسد والمنافسة وتزكية النفس وحب الحياة⁽³⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : «أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ...» (4) .

وعن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) قال : (إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب) (5) .

وأضيف إليها شرب الخمر الذي ينسب إلى الفواحش الظاهرة مثل الزنا الذي يعده السيوطي⁽⁶⁾ ، من مساوئ الأخلاق ، والقذف والقتل والسرقة ، والبعض يعدّ شرب الخمر اصغر الفواحش فيقدموا عليه فيدعوهم ذلك إلى ارتكاب بقية الفواحش⁽⁷⁾ ، فشارب الخمر من الممكن أن يقوم بكل الفواحش وهو تحت تأثير السكر لا يدري ما يفعل فمن الممكن أن يقذف ويزني ويقتل ويسرق ، وللخمر نشوة عظيمة وسحر مروع على الأبواب وسلطان خطير على الافهام ، لهذا حرمها (ﷻ) تحريماً جازماً شاملاً ودعا في كتابه العزيز تركها لما تجلبه من شرور وسخط وما توقعه من عداوة وبغضاء بين الناس وصرفها المسلمين عن ذكر الله⁽⁸⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» (9) «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ» (9) .

(1) إحياء علوم الدين ، 51/1 .

(2) سورة لقمان ، الآية : 18 .

(3) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 51/1 .

(4) سورة النساء ، من الآية : 54 .

(5) النووي ، رياض الصالحين ، 253/2 .

(6) الدر المنثور ، 128/3 .

(7) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 52/1 .

(8) الطبري ، تفسيره ، 32/7 .

(9) سورة المائدة ، الآية : 90-91 ، والأنصاب هنا : حجارة كبيرة غير منصوبة وغير مصورة وهي ليست بصلب كبير ويدور العرب حولها وينحرون عندها . ينظر: ابن الكلبي ، الأصنام ، ص33 ، أما الميسر فسيتم توضيحه في موضع الغناء ومجالس اللهو والسهر ، أما الازلام : فهي من عادات العرب القديمة وهي السهام التي كان أهل الجاهلية يستقسمون بها عند الكاهن ويكتبون

لأن الإقبال عليها من تزيين الشيطان للمسلم لكي يوقع بسببها انتهاك الحرمات وإن في تركها فلاحاً للمسلم ونجاته من شرورها ، ويبدو أن شرب الخمر كان من العادات المنتشرة والمتأصلة لدى العرب ، فقد أكثر العرب من شربها وتغنوا بها في أشعارهم وكانوا يتغنون في وصفها وسموها بأسماء عدة منها الصهباء والحندريس والراح والمعتقة والبالية والمشعشة ، حتى أصبح القول في الخمر غرضاً من أغراض الشعر الجاهلي⁽¹⁾ ، وكانوا يشربونها ليشغلوا فراغهم الطويل الممل ولتزيدهم حماساً في الحروب⁽²⁾ ، وكانوا يدمنون عليها حتى أن الشاعر أعشى قيس كان ينوي الدخول في الإسلام ولكنه مات على الجاهلية لعدم استطاعته ترك الخمر⁽³⁾ .

قيل إن الأعشى خرج إلى رسول (ﷺ) يريد الإسلام وقال في مدح الرسول قصيدة مطولة .
ولكن اعترضه بعض المشركين فقالوا له : (يا أبا بصير كيف تدخل الإسلام وقد حرم الخمر ، فقال الأعشى : أما هذه فوالله إن في النفس منها لعلات ، ولكن منصرف فأترى منها عامي هذا ، ثم أتته فاسلم ، فانصرف فمات في عامه ذلك ولم يعد إلى رسول الله (ﷺ))⁽⁴⁾ .
لقد سلك (ﷺ) في تحريم الخمر مسلك التدرج حتى لا يشق على المسلمين تركها والامتناع عنها وخاصة إنهم اعتادوا على شربها واولعوا بها وكان بعضهم قد أدمن عليها⁽⁵⁾ ، كما جاء في قوله تعالى :
1- «وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»⁽⁶⁾ .
وكان نزول هذه الآية قبل تحريم الخمر وفيها تلميح ضمني إلى أن الرزق الحسن غير الخمر وإن الخمر ليس رزقاً حسناً ، وفي هذه الآية وصف الواقع في ذلك الوقت من اتخاذهم ثمرات النخيل والأعناب مادة أساسية في صنعها⁽⁷⁾ .

عليها الأمر والنهي فإذا كان العرب بينهم المداراة أو نكاح أو أمر يريدونه ولا يدرون ما الأمر فيه ، وهناك سهام السفر والحضر ، وكانوا يضعونها في وعاء - وهي القداح . ينظر: ابن الكلبي ، الأصنام ، ص 28 ؛ ابن حبيب ، المحبر ، ص 333 .

(1) فروخ ، عمر ، تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، (بيروت - د.ت) ، ج 1 ، ص 368 .

(2) الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص 435 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 387/1-388 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق 387/1-388 .

(5) دروزة ، عصر النبي ، ص 84-87 .

(6) سورة النحل ، الآية : 67 .

(7) اللوسي ، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود البغدادي ، (ت 1270هـ) ، روح المعاني في تفسير القرآن الكريم والسبع المثاني ،

دار إحياء التراث العربي ، (بيروت - د.ت) ، ج 1 ، ص 279 ، ج 14 ، ص 181 .

وتدل هذه الآية على كراهية الخمر فقد جمعت بين العتاب والمنة فكان الحسن مقابل الخمر وهو مقتضى لقبجها(1) .

وقد أُلِعَ أهل الطائف بشرب الخمر وكثر فيها زراعة كروم تغلب التي تعرش على جوانب الجبال وتكتنف البيوت هناك - لهذا نرى عندما حاصر الرسول (ﷺ) الطائف بعد أن امتنعت عليه أوعز إلى أصحابه أن يقطعوا أعناب ثقيف حتى ناشده بعض القرشيين بالكف عن ذلك(2) ، وكان في الطائف معاصر للخمر وحانات كبيرة للشرب(3) ، أما في المدينة فكانوا يصنعون خمرهم من التمر والبسر وكان اليهود يحملون إليها خمر الطائف والشام ويتاجرون به ، وكثر الخمر بالمدينة .

وفي رواية عن انس بن مالك : عند تحريم الخمر أمر رسول الله (ﷺ) منادياً ينادي بتحريمها ، فعمد أهل المدينة إلى اوراقها وكسر جرارها حتى جرت في سكك المدينة(4) ، ويذكر أنها حرمت بعد معركة احد(5) ، ثم أنزل قوله تعالى وفقاً لقانون التدرج وتماشياً مع طبيعة النفس البشرية في تحريم الخمر :
2- «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا...»(6) .

وفي هذه الآية دليل واضح على أن الخمر والميسر كانا أمرين مباحين في حياة الجاهلية والسائلون هنا هم المؤمنون من أصحاب رسول الله (ﷺ) والميسر هنا القمار ، والإثم هنا بمعنى المعصية لأن شربها يسبب الإثم وهو الذنب بما يثيره من بغضاء وعداوة وانشغال عن ذكر الله ، والمنفعة هنا في الخمر ما يحصل عليه من أرباح في بيعها وبما يحصل عليه شاربها من ذهاب الهم وحصول الفرح(7) ، ونزول هذه الآية قبل نزول الأمر بتحريمها ، وتذكر الروايات أن سبب نزول هذه الآية أن عدداً من الصحابة سألوا رسول الله أن يفتيهم في الخمر فإنها مذهبة للعقل مسلبة للمال فأنزل قوله تعالى(8) :

3- ثم انزل قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى

(1) المصدر نفسه ، 182-181/14 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/2 483 .

(3) الحوفي ، الحياة العربية في الشعر الجاهلي ، ص 446 .

(4) البخاري ، صحيح ، 869/2 ؛ النويري ، نهاية الإرب في فنون الأدب ، 80/4 .

(5) القرطبي ، تفسيره ، 210/10 .

(6) سورة البقرة ، من الآية : 219 .

(7) الزمخشري ، الكشاف ، 358/1 ؛ القرطبي ، تفسيره ، 52-51/3 .

(8) ابن كثير ، تفسيره ، 233/1 ؛ السيوطي ، الدر المنثور ، 532/1 .

مَا تَقُولُونَ... (1) ، وتذكر الروايات سبب نزول هذه الآية أن مجموعة من الصحابة قد شربوا الخمر وقد حان موعد الصلاة فأختلط عليهم الآيات في قراءتهم (2) ، وفي هذه الآية لم يحرم شرب الخمر وإنما اجتناب شربها عند أوقات الصلاة فكانوا لا يشربونها إلا بعد صلاة العشاء وبعد صلاة الصبح ، ثم نزل الأمر الحازم بعد ذلك في تحريم الخمر (سورة المائدة ، الآية : 90-91) ،

وتشير الروايات إلى أن هناك من حرم في الجاهلية شرب الخمر والسكر والازلام لما لها من أضرار ولأن تناولها يؤدي بأضرار تتنافى مع الأخلاق والسجايا الكريمة ، كما في المثل العربي القائل : (الخمر مفتاح كل شر) (3) ، وأول من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية الوليد بن المغيرة وعبد المطلب بن هشام ، وعثمان بن عفان ، وورقة بن نوفل (4) .

وقد وردت في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تصف الخمر ومجالسها والآنية التي تقدم بها في الجنة ولذتها ، وكذلك ورود الصفة المصاحبة لشرب الخمر (السكر) ، في بعض الآيات ، كلها دلالات واضحة إن هذه المجالس والأوصاف هي صدى لمجالس دنيوية معروفة في عصر النبي (ﷺ) حيث إن هذه المجالس المكلفة لشرب الخمر والميسر التي كانت تعقد في الحواضر الكبيرة وخاصة في مكة والطائف حيث ولع بها أهل هذه المدن (5) ، كما جاء في :

1- قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (6).

2- ﴿أَعْلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ⇒ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِّنْ مَّعِينٍ ⇒ بَيضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ⇒ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ﴾ (7).

(1) سورة النساء ، من الآية : 43 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 99-97/5 .

(3) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 15/3 ، قائل المثل اكثم بن صيفي .

(4) ابن حبيب ، المحبر ، ص 237 .

(5) دروزة ، عصر النبي ، ص 86 .

(6) سورة الحج ، الآية : 2 .

(7) سورة الصافات ، الآية : 44-47 ، وكل كأس في القرآن أريدس بها الخمر ؛ ينظر دروزة ، عصر

النبي ، ص 84 .

﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ﴾ ⇒ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ⇒ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ⇒ يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ ⇒ خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (1) .

وحد الخمر في الإسلام لكل ما أسكر كثيره وقليله من خمر أو نبيذ حرام حد شاربه سواء سكر منه أم لم يسكر هو أن يجلد أربعين بالأيدي وأطرف الثياب ، ويبتك صاحبها بالقول الممض والكلام الرادع وقيل أيضاً يحد بالسوط وقد يتجاوز الجلد إلى ثمانين جلدة (2) .

وكذلك حرم (⇒) كل ما يضر بالفرد والمجتمع وما يتنافى مع الخلق القويم ومنها السرقة ، لأن الإسلام حث على الكسب الشريف والعمل وعدم الاعتداء على ملكيات الآخرين ولتوفير الأمن والاستقرار كما جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ...﴾ (3) .

والعقوبة التي حددها الشرع للسارق أو السارقة بعد ثبوت السرقة هي قطع اليد - كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (4) .

وفي رواية عن عائشة زوجة النبي (Δ) قال : أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت وخافوا أن يسألوا رسول الله فيها فذهبوا إلى أسامة بن زيد ليحدث رسول الله فيها فأستنكر رسول الله من زيد سؤاله عنها قائلاً : (إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها) (5) ، ومن الرجال : (الخيار بن عدي بن نوفل بن عبد مناف) (6) .

وكان حكم الجاهلية في السرقة يوافق حكم الإسلام فقد حكموا في الجاهلية على السارق قطع اليد اليمنى للسارق وصلب قاطع الطريق (7) .

(1) سورة المطففين ، الآية : 22-26 ، أي يسقون بخمر من الجنة والرحيق من أسماء الخمر ؛ ينظر ، ابن كثير ، تفسيره ، 4/486 .

(2) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، ص228 .

(3) سورة الجمعة ، من الآية : 10 .

(4) سورة المائدة ، الآية : 38 .

(5) البخاري ، صحيح ، 3/1282 ؛ ابن الجارود ، المنتقى ، 1/204 .

(6) ابن قتيبة ، المعارف ، ص556 .

(7) ابن حبيب ، المحبر ، ص327-328 .

الفصل الرابع

المستوى المعاشي في مجتمع المدينة وبعض مظاهر الحياة فيها :-

عاش العرب في بيئتهم متفاوتين في مستوى معيشتهم بين (الغنى والفقر) ، ولكن الفقر كان أكثر اتساعاً وخاصة في ظل بيئة صحراوية ، وخاصة منطقة البادية ، كانت غير ذات زرع أو صناعة تدر عليها مالاً ، مما أدى إلى ظهور الصلعة وهي الفقر ، والصعاليك هم الفقراء وتصعلك الرجل إذا افتقر ، وتميز الصعاليك بالفقر والشجاعة وبحس مرهف وبكرمهم⁽¹⁾ .

وأدركوا ما بينهم وبين الأغنياء من فوارق وخلاء يدهم من مال وعجزهم عما يشتهون فثاروا على الأغنياء الأشحاء⁽²⁾ ، وكذلك نستطيع أن نلمس مظاهر الغنى من خلال شعر الغزل في العصر الجاهلي في وصف ترف النساء وملابسهن وحليهن⁽³⁾ .

ويظهر التفاوت في المستوى المعاشي بارزاً في مدن الحجاز مثل مكة والطائف ويثرب ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال مجالس اللهو والخمر⁽⁴⁾ .

وتعد مكة أم القرى وأعظم مدن الحجاز على الرغم من وقوعها في وادي غير ذي زرع وشحة المياه فيها ، وذلك لوقوعها على طريق القوافل التجارية بين بلاد الشام واليمن الذي أدى إلى ازدهار تجاري وكذلك وجود بيت الله الحرام فيها الذي وفد إليه القبائل العربية سنوياً في موسم الحج⁽⁵⁾ ، وهذان العاملان كان سبباً في إنقاذها من الفقر .

ونرى في مكة التفاوت الطبقي وخاصة بوجود التجار الأغنياء وسادة قريش والقبائل الأخرى ذوي النفوذ والجاه ، وقد صور لنا القرآن الكريم ذلك اصدق تصوير من خلال المجادلة الكلامية في الآخرة بين الضعفاء وسادتهم ، وموقفهم الجحودي من الدعوة الإسلامية وإتباع الضعفاء لسادتهم في ذلك كما جاء في قوله تعالى :

(1) يوسف خليف ، الشعراء الصعاليك ، ص 19 .

(2) الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص 299-300 .

(3) المصدر نفسه ، ص 294-295 .

(4) المصدر نفسه ، ص 294-295 .

(5) الجاحظ ، رسائل الجاحظ ، 1/ 186 .

1- «وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَاداً...» (1).

2- «... فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيباً مِنَ النَّارِ» (2).

وكذلك ظهور طبقة الاحمى التي ابتدعتها قريش على أساس أنهم بنو إبراهيم وأهل الحرمه وولاء البيت الذي خصوا أنفسهم بحقوق وامتيار ليس لأحد سواهم ، وكانوا بيوتاً معينة في قريش يتوارثون هذه الامتيازات والمناصب الدينية والمدنية وجعلت لنفسها الحق في فرض بعض السنن والتقاليد ، ويذكر أن كنانة وخزاعة أيضاً من الحمى (3).

والطبقة الأخرى التي حصلت على الامتيازات في الحجاز هي طبقة الحكام من زعماء القبائل والمتنفذين أصحاب السلطة والكلمة المسموعة وهؤلاء يمثلون الطبقة العليا ، وطبقة سوقة وعوام بالإضافة إلى طبقة العبيد والإماء .

أما في يثرب التي امتازت بغناها وخصوبة تربتها وكثرة مياه الآبار - وقد عرفت التجارة أيضاً مع بلاد الشام وخاصة أنها تميزت بموقع مشابه لموقع مكة على طريق القوافل التجارية ، والتجارة أيضاً مع أعراب البادية (4) ، لكن سلسلة الحروب الطويلة بين الاوس والخزرج صرفتهم عن الاهتمام الكبير بالتجارة والزراعة والتي زادت من نفوذ اليهود ، ثم أن معظم الأموال والاطام والثروات والبساتين كانت بيد اليهود حيث كان أول نزولهم في ضيق من العيش وليس الاوس والخزرج أصحاب إبل ولا شاة وليس المدينة بلاد نعم (5).

وتذكر الروايات أن الزراعة في يثرب لم تكن لتكفي حاجة السكان الذين كانوا في ازدياد وحاجة للتموين بالمواد الغذائية (6) ، وكذلك فإن الأسرة في المدينة هي أساس الإنتاج الزراعي حالت دون التجانس وأدت إلى الصراع على الأراضي الزراعية ومياه الري ، وإذا كانت القبيلة في الصحراء تدافع عن الفرد جماعياً فإن هذا القانون يخلف صدمات دموية في المجتمعات المستقرة في المدن وهذا ما كانت تعانيه

(1) سورة سبأ ، من الآية : 33 .

(2) سورة غافر ، من الآية : 47 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق1/199-200 ؛ دروزة ، عصر النبي ، ص228-229 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق1/450 ؛ السمهودي ، وفاء الوفا ، 1/234 .

(5) الاصفهاني ، الأغاني ، 19/95-96 .

(6) الشريف ، مكة والمدينة ، ص359-360 .

يثرب لإمكانية قيام صدام يومي متكرر بين قبائله الرئيسة وخاصة الأوس والخزرج⁽¹⁾ ، وحاجتهم إلى سلطة عليا لمنع تلك الصدامات لكن مجتمع يثرب لم يخلو من الطبقة المترفة ذات النفوذ والسيادة من رؤساء القبائل والأغنياء وأصحاب البساتين والأراضي الزراعية الخصبة مع سعة طبقة العبيد والإماء في المدينة دليل آخر على وجود هذه الطبقة المترفة .

لقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة تشير إلى وجود طبقة الأغنياء والموسرين :-

- 1- «إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ»⁽²⁾.
- 2- «زَيْنَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ»⁽³⁾.

- 3- «وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا»⁽⁴⁾.

- 4- «أَقْلُ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ» ⇒ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقَبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ ... فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ...»⁽⁵⁾.

وهذه الأوصاف دليل على أن أهل يثرب عاشوا هذه النعم وعرفوها وخاصة أن هذه الآيات مدنية ، ومن هذه الطبقة على سبيل المثال عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين والذي كان على أبواب أن يتوج ملكاً ليثرب قبيل وصول الرسول إلى المدينة⁽⁶⁾ ، وكذلك سادة الأوس والخزرج من الأنصار مثل سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس سيد بني الاشهل الذي كان لإسلامه وقع كبير على بني الاشهل حيث

(1) نجمان ياسين ، تطور الأوضاع الاقتصادية ، ص 80-82 .

(2) سورة البقرة ، الآية : 166 .

(3) سورة آل عمران ، الآية : 14 ، والقنطار : هو المال الكثير ويذكر أن مقداره ألف ومئتا أوقية وفي رواية هو اثنتا عشر ألف درهم أو

ألف دينار ، أما الخيل الموسومة : هي الخيل الحسان أو المطعمة

والمعلمة . ينظر: الطبري ، تفسيره ، 119/3-120 .

(4) سورة الأحزاب ، الآية : 67 .

(5) سورة التوبة ، الآية : 53-54 ، ومن الآية : 55 .

(6) ابن هشام ، السيرة ، ق1/583 .

اسلم جميع قومه⁽¹⁾ ، وكذلك أسيد بن حضير بن سماك وكان أبوه من أشراف يثرب في الجاهلية ، وكذلك اسعد بن زرارة ابن غُدس بن عبيد بن ثعلبة بن غنم بن مالك سيد بني النجار⁽²⁾ ، وغيرهم بالإضافة إلى الآيات المدنية التي نزلت على الرسول الكريم في المدينة والتي وصفت نعيم الآخرة من أواني وملابس وألوان مختلفة من الطعام والفواكه والافرشة والبسط وكذلك مجالس اللهو والخمر التي كان يقيمها الأغنياء كلها آيات تدل على أن المخاطبين قد عاشوا وعرفوا هذه الأمور وخاصة أن بعض الروايات تشير إلى وجود أسواق عديدة في المدينة العامرة والزاهرة بألوان البضائع من الهند والصين وشرقي أفريقيا لوقوعها على طريق القوافل بين اليمن وبلاد الشام بالإضافة إلى ما تصدره من تمر ونسيج الثياب⁽³⁾ .

ومن أسواقها سوق بني قينقاع في الجنوب الغربي من المدينة والتي تذكر إحدى الروايات إن النابغة الذبياني عندما رأى هذا السوق أعجب به وهال ناقتة أصوات البائعين والمشتريين ، وضجيج العمال وطرق الصانع⁽⁴⁾ .

وفي رواية أخرى تذكر كثرة عدد الصاغة في سوق المدينة⁽⁵⁾ ، وهذه أدلة واضحة على أن هناك حركة كبيرة وإقبالاً كبيراً على البيع والشراء والصناعة كلها أدلة واضحة على وجود طبقة من أهل الغنى والترف في المدينة وما حولها .

أما الفقراء الذين حرموا من نعيم الدنيا وملذاتها والتي انعكس صداها في نعيم الآخرة التي وعدهم بها (⇒): ﴿وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ⇒ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ⇒ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ⇒ وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرًا ⇒ قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾⁽⁶⁾ .

وقد حذر الإسلام الطبقة المترفة والغنية من كنز الأموال دون توظيفها لعمل الخير ومساعدة الفقراء ووعدهم بعذاب الآخرة : ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾⁽⁷⁾ .

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 420/3 .

(2) المصدر نفسه ، 608/3 .

(3) محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، 90-91 .

(4) الاصفهاني ، الأغاني ، 622/1 .

(5) السهمودي ، وفاء الوفا ، 7/1 .

(6) سورة الإنسان ، الآية : 12-16 ؛ إضافة إلى الآيات التي ذكرت في موضوع شرب الخمر .

(7) سورة التوبة ، من الآية : 34 .

ولم يكتفِ الإسلام بذكر الحياة المادية بل أشار إلى إلغاء الفوارق الطبقية والاجتماعية قدر الامكان ، وإلغاء معايير الجاهلية في سخرية الأغنياء من الفقراء ، والوجهاء من العامة وان لا يخاطب المؤمن من أخيه المؤمن إلا بما يحب من الأسماء ، لأن مجتمع المدينة في عصر الرسول كان معياره في قيمة الإنسان التقوى وليس المال والجاه والحسب والنسب وخاطبهم في القرآن بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ...﴾ (1) .

وقال أيضاً : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (2) .

وهنا إشارة واضحة إلى وجود التمايز الطبقي في مجتمع المدينة ، وعلى العموم فان المستوى المعاشي في المدينة تميز بالبساطة والى الافتقار في كثير من الأحيان إلى الضروريات وخاصة في السنين الأولى للهجرة ، ووجود المهاجرين في المدينة شكل أزمة معاشية كبيرة بالإضافة إلى ما تميز به مناخ المدينة من تقلب وعدم استقرار مما كان يعرض المدينة إلى حالات العسر والجذب وخاصة أن المدينة تعتمد على ما تنتجه أرضها وتنبتة صحراؤها من كلاً وشجر (3) ، وكان وطأة هذه الأزمة اشد على المهاجرين في المدينة ، ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال أحداث عديدة تاريخية جرت في المدينة ، ففي غزوة بدر الكبرى لم يستطع المسلمون أن يوفروا أكثر من سبعين بغيراً بالرغم من أن عددهم قد تجاوز الثلاثمائة مقاتل ، فكان كل اثنين أو ثلاثة يتعاقبون بغيراً واحداً (4) .

بل أن أهل المدينة واجهوا مشكلة إعالة أسرى بدر لندرة الطعام عندهم فكان المسلمون على حد قول احد الأسرى من قريش : (إذا قدموا غداءهم وعشاءهم خصوني بالخبز وأكلوا التمر فما يقع في يد رجل منهم كسرة خبز إلا نفحني بها) (5) .

وعن أبي هريرة أن رسول الله (ﷺ) خرج يوماً من بيته جائعاً فرأى أبا بكر وعمر (رضي الله عنهما) فسألتهما عن سبب خروجهما فقالا : الجوع يا رسول الله فقصدوا رجلاً من الأنصار ، ففرح بهم كثيراً ثم حمد الله وقال :

(1) الحجرات ، من الآية : 13 .

(2) سورة الحجرات ، الآية : 11 .

(3) ولمزيد من الاطلاع ينظر عبد الله عبد العزيز ، مجتمع المدينة في عهد الرسول ، ص 188 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق/1/613 .

(5) المصدر نفسه ، ق/1/643 .

ما أحد اليوم أكرم اضيفاً مني فأنطلق فاتاهم بعثق فيه بسر وتمر رطب وذبح لهم شاة فأكلوا حتى شبعوا ، فقال لهم رسول الله (ﷺ) : (والذي نفسي بيده لتسألني عن هذا النعيم يوم القيامة ...) (1) ، وكذلك العسرة التي مر بها المسلمون عند تجهيزهم لغزوة تبوك ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿الْقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ (2).

زد على ذلك ما دعا إليه (ﷺ) عباده المؤمنين من زهد العيش والاقتصاد والاعتصام على القليل من المأكول والمشرب وعدم السعي إلى التمييز بمباهج الدنيا للفوز بنعيم الآخرة الذي هو بالنسبة إلى مباهج الدنيا أعظم وأدوم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا﴾ (3) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (3) .

ويبدو لنا من كثرة الآيات التي تحت على الإنفاق على الفقراء والمساكين وإطعامهم والتصدق عليهم وكذلك السعي لطلب اجر الآخرة ، والتي وردت في ستة عشر موضعاً من القرآن الكريم كلها تشير إلى سعة هذه الطبقة في مجتمع المدينة ، وكذلك المنزلة الكبيرة التي يتمتع بها المسلمون الفقراء عنده (ﷺ) ، وهذا ما أكدته الأحاديث النبوية الشريفة ، ففي رواية عن الرسول (ﷺ) قال: (اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء) (4) .

1- وكما في قوله تعالى : ﴿إِنْ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ...﴾ (5) .

2- ﴿...وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ (6) .

(1) مسلم ، صحيح مسلم ، 1609/3 ؛ المنذري ، أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوي ، (ت656هـ) ، الترغيب والترهيب ، ط1 ، تحقيق : إبراهيم شمس الدين ، دار الكتب العلمية ، (بيروت-1417هـ) ، ج4 ، ص102 .

(2) سورة التوبة ، الآية : 117 .

(3) سورة مريم ، الآية : 59-60 .

(4) البخاري ، صحيح البخاري ، 1184/3 ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 493/16 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 271 .

(6) سورة البقرة ، من الآية : 272 .

«الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (1) .

والصدقة للفقراء وجه من وجوه عمل الخير والتصدق صفة من صفات المؤمن المحببة لله تعالى وجزاها كبير عنده وفي حديث عن رسول (ﷺ) قال : (اتقوا النار ولو بشق تمرة ...) (2) .
ولهذا جعل (ﷺ) للفقراء حقاً في أموال الأغنياء وهي الزكاة وجعلها الفرض الثاني في الإسلام بعد الصلاة وأمر بها عباده المؤمنين ، كما جاء في قوله تعالى : «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ...» (3) .

وهذا ما أكدته الأحاديث والسنة النبوية الشريفة ، وفي رواية عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رجلاً سأل رسول الله (ﷺ) أن يدلّه على عمل إذا عمله دخل الجنة قال رسول الله : (أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ...) (4) ، والزكاة من الزكاء وهو النماء والريع ، وأرضه زكية أي طيبة ، فكل شيء يزكو وهو ينمو (5) .

الزكاة في الشرع : هي القدر المخرج من النصاب الحولي إلى الفقير شرعاً وسميت بالزكاة لأنها تزكي المال بالبركة وتطهر المرء بالمغفرة (6) ، وهي أيضاً من الواجبات الاجتماعية التعبدية تطهر النفس من البخل وشح الذات لأن غريزة التملك وحب المال متأصل في النفس البشرية (7) .
وقد جاءت في الآية الكريمة بفعل الأمر : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم ...) (8) .
وبذلك يتساوى الكرماء والبلاء في بذل الأموال حباً أو مخافة .

وكان من جملة فقراء المسلمين في المدينة أهل الصفة ، وفي عيون الأثر لابن سيد الناس (9) ، في أصحاب الصفة : أنهم قوم فقراء لا منزل لهم غير المسجد ، فعن ابن سعد عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال : رأيت ثلاثين رجلاً من أهل الصفة يصلون خلف رسول

(1) سورة آل عمران ، الآية : 134 .

(2) الترمذي ، سنن الترمذي ، 611/4 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 43 .

(4) البخاري ، صحيح البخاري ، 27/1 .

(5) ابن منظور ، لسان العرب ، 358/4 .

(6) القنوي ، قاسم بن عبد الله بن أمير علي ، (ت978هـ) ، انس الفقهاء ، ط1 ، تحقيق احمد بن عبد الرزاق ، دار الوفاء ، (جدة -

1406هـ) ، ج1 ، ص130 .

(7) المصدر نفسه ، 130/1 .

(8) سورة التوبة ، من الآية : 103 .

(9) 317/2 ؛ أبو نعيم الاصبهاني ، حلية الأولياء ، ص374 .

الله (ﷻ) وليس عليهم أردية ، عُد منهم أبو هريرة وأبو ذر وواثلة بن الاصقع وقيس بن طخفة الغفاري ، وقد ذكر في عددهم أكثر من ذلك بكثير ، ومع فقرهم وزهدهم ، فقد كانت لهم منزلة رفيعة عند الرسول ولدى مجتمع المسلمين في المدينة ، وكانوا يفخرون بهذا الانتساب .

لذلك فلا غرابة بعد ذلك أن تطلق الصوفية فيما بعد تسمية الفقراء على أنفسهم ، لأن الفقر عندهم خير من الغنى خصوصاً إذا رافقه الرضى ، فليس في الوجود إلا غني واحد ، وكل ما عداه فأنهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام إلى هذا الحصر⁽¹⁾ ، الإشارة بقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾⁽²⁾ .

الطعام والشراب :-

لقد امتاز الطعام والشراب على عصر الرسول (ﷻ) بالبساطة والاقتصاد ، وهذا ما دعا إليه (ﷺ) عباده المؤمنين في كتابه العزيز إلى الزهد وعدم الانسياق وراء الشهوات والملذات والإفراط في المأكول والمشرب والاقتصار على القليل منه ، طمعاً في ثواب الآخرة ومتاعها ، وهكذا ما كان عليه حال الرسول الكريم والصحابة في المدينة ، قال تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾⁽³⁾ .
﴿أَمَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُوماً مَدْحُوراً﴾⁽⁴⁾ .

قال الرسول (ﷻ) : (ما ملأ ابن آدمي وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه ، فإن غلبته نفسه ، فثلث طعام وثلث شراب وثلث للنفس)⁽⁵⁾ .
وقد حث الرسول (ﷻ) على الأكل الجماعي وقال : (شر الناس من أكل وحده ، ومنع رفده ، وجلّد عبده)⁽⁶⁾ .

(1) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 189/4 وما بعدها .

(2) سورة فاطر ، الآية : 15 .

(3) سورة الأعراف ، الآية : 31 .

(4) سورة الإسراء ، الآية : 18 .

(5) النسائي ، السنن الكبرى ، 177/4 ، ص 177 ؛ ابن ماجه ، سنن ابن ماجه ، 111/2 .

(6) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 245/2 .

لقد وردت كلمة الطعام في القرآن الكريم في (26) موضعاً منه ، كما جاء في قوله تعالى :
﴿أَفَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ (1) .

لقد كان الغذاء الرئيس لأهل المدينة على عهد رسول الله (ﷺ) هو التمر وهو أيضاً الغذاء الرئيس للعرب ، وذلك لكثرة زراعة النخيل في المدينة وغلبتها على بقية المحاصيل الزراعية كما يذكر البلدانونيون حيث وصفت يثرب : بأنها سبخة من الأرض لها نخيل كثيرة ومياه ، ونخيلهم وزروعهم تسقى من آبار عليها عبيد ، وأجود تمورها تمر يسمى (الصيحاني) ، وهو من أجود التمور يندر وجوده في البلدان الأخرى (2) ، وكانت يثرب تصدر الفائض عن حاجتها من التمور (3) .

وفي معركة الخندق تذكر الروايات محاولة الرسول إغراء قبيلة غطفان التي كانت تحاصر المدينة مع الأحزاب بتقديم ثلث ثمار المدينة (أي ثلث تمرها) لأن سعد بن معاذ حين رفض هذا الحل خاطب النبي (ﷺ) قائلاً : (قد كنا على الشرك بالله وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرئ أو بيعاً ...) (4) .

وفي معركة الخندق أيضاً يذكر ابن هشام عن ابن إسحاق ما يشير إلى أن غذاء أهل المدينة الرئيس كان التمر فيقول : إن ابنة البشير بن سعد أخت النعمان ابن البشير قالت لأبنتها عمرة بن رواحة بعد أن أعطتها حفنة من التمر : اذهبي إلى أبيك وخالك عبد الله بن رواحة بغذاءهما ، فاجتمع أهل الخندق على هذا التمر القليل فجعلوا يأكلون منه حتى شبعوا وذلك ببركة الله (ﷻ) (5) .

وجعله (ﷻ) من الرزق الحسن سواء كان بلحاً أو مجففاً (6) ، كما في قوله تعالى : ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي لِقَوْمٍ يُعْقِلُونَ﴾ (7) .

وقد ورد ذكر النخيل وثمارها في القرآن الكريم في مواضع عديدة كما في قوله تعالى :

(1) سورة عبس ، الآية : 24 .

(2) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، 82/5 .

(3) المصدر نفسه ، 82/5 .

(4) ابن هشام ، السيرة ، ق23/2 .

(5) المصدر نفسه ، ق218/2 .

(6) ابن الجوزي ، زاد المسير في علم التفسير ، 465/4 .

(7) سورة النحل ، الآية : 67 .

- 1- «أَيُّودٌ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ...» (1) .
 - 2- «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (2) .
 - 3- «وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ» (3) .
- وتذكر إحدى الروايات أن أهل الصفة وهم فقراء المسلمين اشتكوا إلى رسول الله (ﷺ) إن التمر قد أحرق بطونهم فأجابهم قائلاً : (قدمنا على إخواننا من الأنصار - وجل طعامهم التمر فواسونا ، ولو أجد لكم الخبز واللحم لأطعمتكم) (4) .
- وفي رواية تذكر أن رسول الله (ﷺ) كان كثيراً ما يأكل كسرة من خبز شعير فيضع فوقها تمره ويقول هذه أدام هذه (5) .
- أما الخبز فلم يرد ذكره في القرآن الكريم ورد ذكره بتعبيرات أخرى منها :
- 4- قوله تعالى : «امْثُلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمْثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ» (6) .
 - 5- «وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ» (7) .
 - 6- «وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ» (8) .
- والحب هنا قصد به حب البر أو الشعير ذو الورق التبني وهو العصف (9) ، والى جانب التمر كان يزرع في يثرب الشعير والقمح (10) .

(1) سورة البقرة ، من الآية : 266 .

(2) سورة الرعد ، الآية : 4 ، والصنوان : هو جمع صنوا وهي النخلات يجمعهن اصل واحد ، وغير

صنوان : هي النخل متفرقة . ينظر: الطبري ، تفسير ، 99/13 .

(3) سورة ق ، الآية : 10 .

(4) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 264/1 .

(5) أبو داود ، سنن أبو داود ، 362/3 .

(6) سورة البقرة ، الآية : 261 .

(7) سورة ق ، الآية : 9 .

(8) سورة الرحمن ، الآية : 12 .

(9) الطبري ، تفسيره ، 120-119/28 .

(10) محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص 92 .

وشاع في المدينة تناول خبز الشعير إلى جانب التمر ، أما خبز الحنطة فيبدو أن أهل المدينة كانوا أقل استخداماً له واقتصر على الموسرين منهم ، ففي رواية تذكر : (كان الناس في يثرب إنما طعامهم بالمدينة تمر والشعير ، فكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة^(*) من الشام بالدرمك ابتاع الرجل منها فخص به

نفسه ، فأما العيال فإنما طعامهم التمر والشعير)⁽¹⁾ ، وكان من افخر طعام المدينة هو ثريد الخبز باللبن⁽²⁾ .

وقام أهل المدينة بزراعة البقول على أنواعها والخضار والثوم والقثاء و البصل و القرع ، كما جاء في قوله تعالى : «وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا... لَا (3) .

وسورة البقرة من السور المدنية التي نزلت على الرسول في المدينة فعلى الرغم من أن المخاطب هنا اليهود ، واليهود هنا من سكان المدينة والمدينة أرضها زراعية تكثر فيها زراعة أنواع مختلفة من المحاصيل والخضر ومناخها يساعد على زراعة تلك الأصناف وليس من المعقول يورد (⇒) أسماء لا يعرفها أهل المدينة ولم ترد عليهم ، وفي رواية تذكر أن مولى عثمان بن مضعون كان يزرع لهم أرضاً بالحرّة وكان يأتي عمر بن الخطاب (◀) في منتصف النهار حاملاً إليه القثاء والبقل⁽⁴⁾ ، وكانوا يستخدمون هذه البقول والخضراوات في طبخ أنواع مختلفة من الأطعمة والمرق ، وفي رواية عن أبي أيوب الذي أقام عنده رسول الله (ﷺ) أول قدومه المدينة وقبل بناء المسجد ، فذكر انه في احد الليالي وكعادته بعث بعشاء رسول الله (ﷺ) وقد جعلوا به بصلاً أو ثوماً فردّه رسول الله فسأله أبو أيوب عن السبب فأجابه قائلاً : أنا رجل أناجي ، فأما انتم فكلوه⁽⁵⁾ .

وفي رواية أخرى عن انس بن مالك أن رسول الله (ﷺ) كان يعجبه مرق القرع والدباء في قصعته ،ولهذا أحب انس أكل القرع⁽⁶⁾ .

(*) الضافطة : هي الإبل المحملة بالميرة ، والدرمك هو الدقيق الخالص البياض . ينظر: هامش ، ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 231/1 .

(1) المصدر نفسه ، 231/1 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 237/1 .

(3) سورة البقرة ، من الآية : 61 .

(4) البلاذري ، فتوح البلدان ، ص 14 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق 499/1 .

(6) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 103/12 .

وقد زرع أهل المدينة أنواعاً مختلفة من الفاكهة وأحبوا أكلها ، وكانوا يقدمون سلال الفاكهة في مناسباتهم وأعراسهم مع سلال السكر تعبيراً عن فرحتهم ، وقد أحب رسول الله أكل الرطب مع البطيخ الأصفر (1) .

وقد جاء ذكر الفاكهة وثمارها في أكثر من موضع من القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ...﴾ (2) .

وقوله تعالى : ﴿وَاحْدَائِقَ غُلْباً ⇒ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ (3) .

﴿وَفَاكِهَةً كَثِيرَةً ⇒ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (4) .

وقد ورد ذكر الزيتون في أكثر من آية من الذكر الحكيم وهذا دليل واضح على أن ثمرها قد شاع استخدامه في عصر الرسول وخاصة زيتها ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ﴾ (5) .

ويذكر أن أفرادها بالذكر العظيم في هذه السورة لمنافعها وكثرة زراعتها في الشام والحجاز وخاصة المناطق الخصبة من بلاد الشام ، (طور سيناء) ، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى (6) ، وقوله تعالى : ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾ (7) ، وشاع استخدام زيتها في المدينة حيث كانت تأتيها القوافل التجارية من بلاد الشام محملة بالزيت والدقيق (8) ، وكان زيتها يؤتمد به ، وكذلك زيت شحوم الأنعام .

(1) الطبراني ، أبو القاسم سليمان بن احمد ، (ت360هـ) ، المعجم الأوسط ، تحقيق طارق عوض الله وآخرون ، دار الحميرين ، (القاهرة-1415هـ) ، ج 1 ، ص 44 ؛ الحاكم النيسابوري ، المستدرک على الصحيحين ، 134/4 .

(2) سورة النحل ، من الآية : 11 .

(3) سورة عبس ، الآية : 30-31 ؛ وحدايق غلبا : أي بساتين ذات أشجار كثيرة . ينظر : الواحدي ،

الوجيز ، 1175/2 ؛ أما (وفاكهة وأبا) ، فهي ما يأكله الناس من ثمار الأشجار ، والأب ما تأكله البهائم من العشب والنبات ؛ الطبري ، تفسير الطبري ، 59/30 .

(4) سورة الواقعة ، الآية : 32-33 .

(5) سورة المؤمنون ، الآية : 20 .

(6) القرطبي ، تفسيره ، 114/12 .

(7) سورة عبس ، الآية : 29 .

(8) المغازي ، الواقدي ، 989/3 .

وكان من طعام أهل المدينة ثريد الخبز والزيت فأول هدية قدمت إلى رسول الله (ﷺ) من أهل المدينة عند قدومه إليها قصعة فيها خبز وسمن ولبن أرسلتها له أم زيد بن ثابت⁽¹⁾ ، ويذكر أن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في عام الرماد كان يأمر بالزيت فيفار في قدور كبار على النار ثم يترك ليبرد فيثرد به الخبز ثم يؤدم بذلك الزيت⁽²⁾ .

وكانوا يعصرون أحياناً العكة فوق الخبز ويأتمموا بالخل⁽³⁾ .

واستخدم أهل المدينة الزيت في الإضاءة أيضاً وهذا ما نستدل عليه في قوله تعالى : ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ...﴾⁽⁴⁾ .

أما الأنعام ولحومها واوبارها وأصوافها والإفادة منها فقد ذكرت في القرآن الكريم وفي أكثر من آية وبحفاوة بالغة ، ولم يقتصر استخدام الأنعام على البدو فقد شاع استخدامها والإفادة منها في ذلك العصر وخاصة في مدن الحجاز⁽⁵⁾ ، والمدينة واحدة منها ، وخاصة الإفادة من لحوم الأنعام من شاة وأبل وبقر وماعرز

طعامهم ، ومن الآيات التي ورد فيها ذكرها ، قوله تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْحَرْثِ...﴾⁽⁶⁾ .

﴿وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَاماً قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾⁽⁷⁾ .

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾⁽⁸⁾ .

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 237/1 .

(2) المصدر نفسه ، 317/3 .

(3) النووي ، رياض الصالحين ، 273/10 .

(4) سورة النور ، من الآية : 35 .

(5) دروزة ، عصر النبي ، ص 77 .

(6) سورة آل عمران ، من الآية : 14 .

(7) سورة هود ، الآية : 69 ، والحنيز : هو المشوي . ينظر: دروزة ، عصر النبي ، ص 80 .

(8) سورة النحل ، الآية : 5 .

وقد عرف الحجاز اللحم المشوي⁽¹⁾ .

وفي رواية عن عبد الله بن عمر (◀) عن النبي قال : (ثم أن رجلاً كلم النبي (ﷺ) يوم فتح مكة فأخذته الرعدة فقال النبي : هون عليك فإنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد في هذه البطحاء)⁽²⁾ ، وكان من طعام أهل المدينة أيضاً ، القديد من اللحم ، هو اللحم المقطع والمجفف⁽³⁾ ، وكثيراً ما يقدم اللحم تعبيراً عن الحفاوة بالضيوف ، وكانت الولائم تقام في المدينة لكن بدون بذخ وبخاصة مناسبات الأعراس ، فيذكر أن الرسول (ﷺ) عند تزويجه ابنته فاطمة إلى ابن عمه علي بن أبي طالب عليه السلام ، قال رسول الله لعلي : (يا علي انه لابد للعرس من وليمة ، فقال له سعد : عندي كبش فأتى به ، وجمع له رهط من الأنصار أصاعاً^(*) من ذرة)⁽⁴⁾ .

وكان أهل المدينة يأكلون لحوم الحمير الإنسانية إلى أن نهى عنها الإسلام ، فيذكر ابن إسحاق : (نهى رسول الله في غزوة خيبر عن أكل لحوم الحمير الإنسانية والقذور تفور بها فكفأناها على وجوهها ، وأذن لهم أكل لحوم الخيل)⁽⁵⁾ .

وكان سيد طعام أهل المدينة الثريد كما روي عن رسول الله (ﷺ)⁽⁶⁾ ، وهو ثريد الخبز وعراق اللحم ، وهو العظم من غير لحم⁽⁷⁾ ، وكان أهل المدينة يطبخون اللحم باللبن الحامض وكانت تسمى هذه الأكلة بالمضيرة⁽⁸⁾ .

(1) دروزة ، عصر النبي ، ص 80 .

(2) الحاكم النيسابوري ، المستدرک على الصحيحين ، 506/2 ، 50/3 .

(3) ابن حجر ، الإصابة ، 417/1 .

(*) الصاع : وهو ما يكال به وهو أربعة امدادٍ والجمع (اصواعٌ) والصاع هو إناء يشرب به . ينظر :

الرازي ، مختار الصحاح ، ص 373 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 21/8 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق 331/2 .

(6) البخاري ، صحيح ، 1252/3 ، عن أبي موسى الأشعري (◀) ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 50/11 ، وفي رواية عن انس بن مالك .

(7) ابن حجر ، الإصابة ، 417/1 ؛ عبد الله عبد العزيز ، مجتمع المدينة في عهد الرسول ، ص 243 .

(8) ابن أبي شيبة ، أبو بكر عبد الله بن محمد الكوفي ، (ت 235هـ) ، مصنف أبي شيبة ، تح كمال يوسف الحوت ، مكتب الرشيد ، (الرياض-1409هـ) ، ج 5 ، ص 65 ؛ الميداني ، مجمع الأمثال ، 70/1 .

أما الشراب فكان أفضل شرابهم اللبن وشرب اللبن من العادات العربية القديمة ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ (1) .

ومن الاشربة السائدة في المدينة أيضاً نقيع التمر دون أن يخمر (2) ، وقد استخدم العرب ومنهم أهل المدينة العسل علاجاً وطعاماً وشراباً بعد خلطه بالماء ، وقد كان رسول الله (ﷺ) يحب أكل العسل وخاصة عكة العسل (3) .

وقد ورد ذكر العسل في القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى : ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ⇒ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ...﴾ (4) .

وجعل (⇒) العسل أيضاً من نعيم الآخرة كما في قوله تعالى : ﴿... وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى...﴾ (5) .

وجعل الإسلام للطعام آداباً يجب على المؤمن أن يتحلى بها ومنها : أن لا يعيب الطعام ولا يمدحه ، روي عن النبي (ﷺ) : (ما عاب طعاماً قط ، كان إذا اشتهاه أكله وإلا تركه) (6) .

وانه يقول في أوله : بسم الله وفي آخرة (الحمد لله كثيراً طيباً مباركاً فيه ، غير مكفى ولا مودع ولا مستغنى عنه ربنا) (7) .

وكذلك الأكل باليد اليمنى ، والأكل مما يليك (8) ، ومن الآداب أن لا يأكل من وسط القصعة قال (⇒) : (كلوا من حواليتها ولا تأكلوا من وسطها ، فإن البركة تنزل في وسطها) (9) .

(1) سورة النحل ، الآية : 66 ، والفَرْث فضلات الطعام بعد الهضم ؛ ابن منظور ، لسان العرب ، 176/2 .

(2) ابن قيم الجوزية ، زاد المعاد ، ص 17 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 170/8 .

(4) سورة النحل ، الآية : 68 ، ومن الآية : 69 .

(5) سورة محمد ، من الآية : 15 .

(6) النووي ، رياض الصالحين ، 7/2 .

(7) البخاري ، صحيح ، 2078/5 ؛ الحاكم النيسابوري ، المستدرک على الصحيحين ، 710/1 .

(8) ابن ماجة ، سنن ابن ماجة ، 1089/2 .

(9) السهروردي ، آداب المريدين ، ورقة (20ب-22أ) .

ويترك النظر إلى لقمة صاحبه روي عن النبي (ﷺ) : (لا يبتغي أحدكم بصره إلى لقمة صاحبه بالنظر) ، وإذا أكل مع جماعة لا يمسك عن الأكل ماداموا يتناولون ، لاسيما إذا كان مقدمهم روي عن النبي (ﷺ) : (كان إذا أكل مع جماعة كان آخرهم أكلاً) (1) .

ويجب على المضيف أن يطعم الضيف من الحلال وعلى الضيف أن يرضى بما يقدم إليه وإن لا يخرج إلا بعد الاستئذان ، وروي عن النبي (ﷺ) قال : من السنة أن يشيع الضيف إلى باب الدار (2) .

كان العرب قبل الإسلام وفي عصر النبي يحلوا لهم أكل بعض أنواع الأطعمة والذبائح بحسب أعرافهم وتقاليدهم ولإرضاء آلهتهم بحسب زعمهم ولكن الإسلام حرمها ، حيث كان الناس في ذلك العصر لا يخرجون من تناولها ومنها الدم ، إذ كانوا يعالجونه بالطبخ مع إضافة بعض النباتات إليه (3) .

وقد صور القرآن الكريم الذبائح المحرمة لما في تناولها من ضرر على صحة الإنسان وحياته ، حيث كانوا يقولون كيف نأكل ما أمناه بأيدينا ولا نأكل ما آماته الله (4) .

1- كما جاء في قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ... ﴾ (5) .

2- ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنَازِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَّةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ ... ﴾ (6) .

وكانوا في الجاهلية يبيحون أكل هذه الأصناف ولا يعدونها ميتة ويقدمونها لأضيافهم ، أما البهيمة التي تموت حتف انفها لا يعدونها ميتة ، والميتة عندهم هي التي تموت من الوجع فحرم (ﷺ) عليهم الأصناف المذكورة إلا ما أدركوه فذكوه ذكاة شرعية ومنها خروج الدم فقد يحوي الدم الكثير من الجراثيم ، ومن المحرمات ما ذبح لغير الله ، وما خنق بحبل ونحوه والمضروبة بعصا أو حجر وما تردت وسقطت من جبل ونحوه ، وما نطحت من غيرها من البهائم وما أكل السبع بعضه فمات إلا ما ذكي قبل موته (7) ،

(1) المصدر نفسه ، (20ب-22أ) .

(2) السهروردي ، آداب المريدين ، ينظر الفصل في آداب الصوفية في الأكل ، ورقة 22أ .

(3) دروزة ، عصر النبي ، ص 81 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 74/6 .

(5) سورة البقرة ، من الآية : 173 .

(6) سورة المائدة ، من الآية : 3 .

(7) الزمخشري ، الكشاف ، 603/3 .

ويجوز أكلها في الحالات الاضطرارية دون الشبع والتلذذ⁽¹⁾ ، أما تربية الخنازير فلم تُشر المصادر إلى وجودها في الحجاز ، وقد يكون وجودها في بلاد الشام حيث الديانة المسيحية التي تبيح أكل لحومها ويكون معرفة أهل الحجاز لها من خلال اتصالهم ببلاد الشام عن طريق التجارة⁽²⁾ .

لقد عرف العرب الصيد وكان من مشاغل العرب ومعايشهم المهمة في ذلك العصر يتمرنون به على أعمال الفروسية والطراد والرمي ، ويعولون عليه في معيشتهم ، وقد أباح الإسلام صيد البحر والبر وأجاز الصيد بالكلاب ، وفي رواية عن الرسول (ﷺ) قال : (من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد ، ولا ماشية ولا ارض ، فإنه ينقص من أجره قيراطان كل يوم)⁽³⁾ ، وقد وردت في القرآن الكريم عدد من الآيات تشير إلى ذلك منها قوله تعالى :-

1- **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ ... لا (4) .**

2- **... وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ... لا (5) .**

3- **يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ... لا (6) .**

حيث يعد الصيد من الهوايات الرياضية التي مارسها بعض الصحابة على عهد الرسول (ﷺ) في يثرب ، وهواية الصيد بواسطة الكلاب والطيور كالباز وهذا ما أكدته الآية السابقة حيث حل (ﷻ) أكل ما تمسكه الجوارح على أصحابها وعدت من الطيبات⁽⁷⁾ ، وكانوا يستخدمون في صيدهم أيضاً السهام والرماح ، كما جاء في قوله تعالى : **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَبْلُغَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ... لا (8) .**

(1) الطبري ، تفسير ، 86/2 ؛ القرطبي ، تفسيره ، 231/2 .

(2) دروزة ، عصر النبي ، ص 81 .

(3) النووي ، رياض الصالحين ، 292/2 ، والقيراط : هو من الوزن معروف وهو نصف دانق واصله قراط بالتشديد لان جمعها قرايط

والقيراط جزء من اجزاء الدينار وعشرون قيراط يساوي مثقال ؛ ابن

منظور ، لسان العرب ، 376/7 .

(4) سورة المائدة ، من الآية : 1 .

(5) سورة المائدة ، من الآية : 2 .

(6) سورة المائدة ، من الآية : 4 .

(7) الطبري ، تفسيره ، 99/6-100 .

(8) سورة المائدة ، من الآية : 94 .

كما استخدموا في صيدهم المعارض^(*) والفخاخ والشراك والشباك⁽¹⁾ ، وكانوا يصيدون الضباء والبقر والحرر الوحشية وغيرها⁽²⁾ .

ومن الأمثلة العربية الشائعة عن الصيد والتي ذكرها رسول الله (ﷺ) لأبي سفيان : (أنت أبا سفيان كما قالوا : كل الصيد في جوف الفراء)⁽³⁾ .

وأباح الإسلام صيد البحر أيضاً ، كما جاء في قوله تعالى : «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ...»⁽⁴⁾ .

الملابس والزينة :-

لقد تميزت الحياة في المدينة في عصر الرسول (ﷺ) بالبساطة والزهد والاقتصاد كما ذكرنا ، وعدم السعي وراء نعيم الدنيا وبهجرتها طمعاً في ثواب الآخرة ونعيمها التي وعد بها (ﷺ) عباده المؤمنين ، كما جاء في قوله تعالى :-

«فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ»⁽⁵⁾
وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ⁽⁶⁾ .

وقد انعكس ذلك على المأكّل والملبس ، فقد امتازت ثيابهم بالبساطة وترك الترفع في اللباس تواضعاً كما جاء في السنة النبوية المشرفة وأحاديث الرسول (ﷺ) حيث قال : (من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه ، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها)⁽⁶⁾ ، كما أنهم اعتنوا بمظهرهم دون تكلف مع الاعتناء بنظافة الملابس والجسد لهذا فرض (ﷺ) الوضوء ، واستن الرسول (ﷺ) دهن شعر الرأس والغسل والتطيب خاصة في أيام الجمع ، قال رسول الله : (الطهور

(*) وهو خشبه محدودة الطرف يوضع في طرفها حديدة تشبه الرمح ويرمى بها للصيد . ينظر: ابن حجر ، الإصابة ، 482/1 .

(1) المصدر نفسه ، 482/1 ، 475/2 .

(2) الواقدي ، المغازي ، 17/1 ؛ وينظر شعر حسان بن ثابت حيث يذكر الصيد وخاصة صيد الحمار

الوحشي . ينظر: محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص 140 .

(3) ابن عبد ربّه ، العقد الفريد ، 3/7 ، والفراء ، الحمار الوحشي ؛ ينظر المصدر نفسه ، 3/7 .

(4) سورة المائدة ، من الآية : 96 .

(5) سورة القصص ، الآية : 79-80 .

(6) الترمذي ، سنن الترمذي ، 650/4 .

شطر الإيمان⁽¹⁾ ، وكما جاء في قوله تعالى : ﴿...مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽²⁾ ، لهذا نرى استحباب لبس الثوب الأبيض في الإسلام وفي حديث لرسول الله (ﷺ) : (ألبسوا البياض ، فإنها أظهر وأطيب وكفونوا فيها موتاكم)⁽³⁾ ، فهي أظهر إذ لم يختلط بها أنواع الصباغة ويظهر فيها الاتساخ بسرعة فيُسرَع إلى غسلها أما طيبها فإنها تضيء على لباسها نوعاً من التواضع وتبعث في نفس ناظرها الراحة لهذا نرى (⇒) قد وصف وجه المؤمن بالبياض في يوم الحساب وذلك لأيمانها وإخلاصها في العبادة⁽⁴⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ...﴾⁽⁵⁾ .

وقوله تعالى : ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾⁽⁶⁾ واختلفت علماء التفسير في معنى هذه الآية أي ثيابك فقصر وشمر ، وقيل معناها أي طهر ثيابك بغسلها بالماء ، وقيل أي طهر نفسك من الذنوب فكفى عن الجسم بالثياب لأنها تشتمل عليها⁽⁷⁾ ، وقد وردت كلمة ثياب في ثمان مواضع من القرآن الكريم كما جاء في قوله تعالى : ﴿هَٰذَا أَنْ خَصَمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ...﴾⁽⁸⁾ .

ولم ترد إشارة إلى نوع الثياب أو الزي الذي كانوا يرتدونه في ذلك العصر ، وربما يرجع السبب في ذلك لأن الزي أو نوعية الثياب تتغير من عصر إلى عصر ففي كل عصر تبرز أزياء وأنواع جديدة للأقمشة والملابس ، أما كلمة لباس ولباسهم ويرتدون أو يلبسون فقد وردت في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتَكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَلِكَ خَيْرٌ ...﴾⁽⁹⁾ .

(1) البخاري ، صحيح ، 912/2 ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 214/12 ؛ النووي ، رياض الصالحين ، 91/2 .

(2) سورة المائدة ، من الآية : 6 .

(3) البخاري ، صحيح ، 912/2 ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 214/12 ؛ النووي ، رياض الصالحين ، 91/2 .

(4) الطبري ، تفسيره ، 39/4 ؛ النووي ، رياض الصالحين ، 17/2 ، هامش الصفحة .

(5) سورة آل عمران ، من الآية : 106 .

(6) سورة المدثر ، الآية : 4 .

(7) الطبري ، تفسيره ، 147-144/29 ؛ ابن الجوزي ، زاد المسير ، 401-400/8 .

(8) سورة الحج ، من الآية : 19 .

(9) سورة الأعراف ، من الآية : 26 .

ولم يرد وصفٌ لنوع الثياب في القرآن الكريم إلا في وصف ثياب أهل الجنة حيث ورد ذكر الحرير والسندس والإستبرق⁽¹⁾ ، والسندس جمع سندسة وهي نمارق من ديباج أما الإستبرق ، فهو ما غلظ وثخن من الديباج وقد يأتي تبرق الثوب بريقً ، وقيل هو الحرير⁽²⁾ ، وهم يجمعون بين النوعين ، ولبس الحرير للرجال اقتصر على نعيم الآخرة ، فقد حرمه الإسلام على الرجال وكما جاء في حديث عن عمر بن الخطاب عن رسول الله (ﷺ) قال : (لا تلبسوا الحرير فإن من لبسه في الدنيا لم يلبسه في الآخرة)⁽³⁾ ، وكما جاء في قوله تعالى : «أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَاباً خُضْراً مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقاً »⁽⁴⁾ .

وقد حرم الإسلام لبس الحرير إلا في الحالات الاضطرارية ، فقد رخص الرسول (ﷺ) للزبير وعبد الرحمن بن عرف (رضي الله عنهما) لبس الحرير لحكة بهما⁽⁵⁾ .

وكان معظم لباسهم في المدينة مصنوعاً من الكتان والقطن والشعر والصوف وكان زي الصحابة والمسلمين في المدينة قد تميز بالبساطة ويتألف من جزئين هما⁽⁶⁾ :

أولاً : الآزار وكانوا يرخون مقدمة الآزار حتى تقع حاشيته على ظهر القدم ويرفعونه مما وراءهم⁽⁷⁾ ، وقد حرم الإسلام إسداله أسفل الكعبين على سبيل الخيلاء ، وعن عمر عن النبي قال : (الإسبال في الآزار والقميص والعمامة من جر شيئاً خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة)⁽⁸⁾ ، لهذا نرى آزار المسلمين تحت السرة وقد يكون فوقها .

ثانياً : القميص ، ويغطي أعلى الجسم ويتميز بقصره وقصر الكمين ويلبسه الصغار والكبار⁽⁹⁾ .

(1) الطبري ، تفسيره ، 243/15 .

(2) الآلوسي ، روح المعاني ، 135/25 ، 260 .

(3) البخاري ، صحيح ، 2195/5 ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 245/2 .

(4) سورة الكهف ، الآية : 31 .

(5) النووي ، رياض الصالحين ، 26/2 .

(6) المصدر نفسه ، 16-20/2 .

(7) ابن سعد ، الطبقات ، 459/1 .

(8) النووي ، رياض الصالحين ، 21/2 .

(9) ابن سعد ، الطبقات ، 458/1 .

وتذكر الروايات أن القميص كان أحب اللباس إلى رسول الله (ﷺ) وكان كمه إلى الرسخ ، وكان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يقطع كمه ما جاوز الإصبع⁽¹⁾ ، وقد ورد ذكر القميص في القرآن في قوله تعالى : ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ...﴾⁽²⁾ .

وفي قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمْ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمْ بَأْسَكُمْ...﴾⁽³⁾ .

والسراويل هنا بمعنى القمصان تقي الحر والثانية الدروع⁽⁴⁾ .

ومن لباسهم أيضاً الجلب والبرود وخاصة في أيام الجمع والأعياد وكانت تصنع من عدة مواد منها الصوف وبألوان مختلفة منها وأكثرها استخداماً الأسود⁽⁵⁾ ، ولبس أهل المدينة الحل وبألوان مختلفة ، فتذكر إحدى الروايات إن رسول الله (ﷺ) شوهد في حلة حمراء سبراء⁽⁶⁾ ، وقد أجاز الرسول (ﷺ) الشاعر كعب بن زهير في مسجد المدينة بعد أن انتهى من قصيدته التي يمدح فيها الرسول (ﷺ) ، وقد ألبسه رسول الله (ﷺ) عباءته دلالة على رضائه وقبوله والتي سميت بالبردة ، وقد توارثها الخلفاء فيما بعد حتى انتهت إلى العباسيين⁽⁷⁾ ، وكانوا يلبسونها في المناسبات حتى سقوط بغداد ، ولبس الصحابة أيضاً السراويل وربما استعاضوا بالسروال عن الآزار .

واهدي إلى رسول الله (ﷺ) كسوة فيها سروال من نجاشي الحبشة ، والسروال لباس بغطي السرة والركبتين وما بينهما⁽⁸⁾ .

ولبس أهل المدينة العمامم وخاصة السوداء منها والمضرية ، وتذكر إحدى الروايات إن رسول الله (ﷺ) قد لبس عمامة سوداء عند فتح مكة⁽⁹⁾ ، ولبس الزبير ابن العوام عمامة صفراء في معركة بدر⁽¹⁰⁾ ،

(1) البخاري ، صحيح البخاري ، 425/1 .

(2) سورة يوسف ، من الآية : 18 .

(3) سورة النحل ، من الآية : 81 .

(4) النووي ، رياض الصالحين ، 17/2 ، هامش الصفحة .

(5) ابن حنبل ، أبو عبد الله أحمد الشيباني ، (ت241هـ) ، مؤسسة قرطبة ، (مصر - د.ت) ، ج6 ، ص132 .

(6) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 82/4 .

(7) ابن هشام ، السيرة ، ق502-515 .

(8) ابن حبيب ، المحبر ، ص76 ، والسروال كلمة فارسية معربة .

(9) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 114/12 .

(10) الحاكم النيسابوري ، المستدرک على الصحيحين ، 407/3 .

ولبس أهل المدينة النعال المخصوفة ، ولبسوا أيضاً الاخفاف⁽¹⁾ ، ولم يتختم أهل المدينة ومنهم الصحابة بخواتم الذهب لنهي رسول الله (ﷺ) عن ذلك بل تختم بعضهم بخواتم من حديد أو فضة⁽²⁾ .

وكانوا يصبغون شواربهم ولحيهم ورؤوسهم بالخضاب ، وقد يكون احمر أو اصفر ، وكان رسول الله يكره تغير الشيب بالسواد ويأمرهم بتخضيب الشيب بالحناء ليخالفوا اليهود والأعاجم⁽³⁾ .

وكان رسول الله والصحابة يتعطرون بالطيب وخاصة المسك⁽⁴⁾ .

وفي حديث عن انس (رضي الله عنه) عن رسول الله قال : (حبب إلي النساء والطيب وجعلت قرة عيني في الصلاة)⁽⁵⁾ .

أما عن لباس المرأة في المدينة وما ورد عنه في القرآن الكريم والذي ينم عن الحشمة والوقار وذلك للحفاظ على عفتها وإلى كل ما يسوؤها أو يחדش حياءها ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿... وَلِيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوَاتِ النِّسَاءِ...﴾⁽⁶⁾ .

وقوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً﴾⁽⁷⁾ .

ونستطيع أن نتبين من خلال هذه الآيات إن النساء في عصر النبي (ﷺ) كن يرتدين الخمار ، حيث يقال للمرأة اختمرت أو تخمرت إذا لبست الخمار وهو لباس تغطي به المرأة رأسها ويسمى أيضاً المقانع⁽⁸⁾ ، وقد جاء في قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ﴾⁽⁹⁾ .

(1) ابن سعد ، الطبقات ، 478/1 .

(2) المصدر نفسه ، 478/1 ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 227/12 .

(3) ابن سعد ، الطبقات ، 139/1-140 ؛ البخاري ، صحيح ، 137/7 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 437/1 ؛ ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 216/4 .

(5) النسائي ، السنن الكبرى ، 51/7 ؛ الحاكم النيسابوري ، المستدرک على الصحيحين ، 174/2 .

(6) سورة النور ، من الآية : 31 .

(7) سورة الأحزاب ، الآية : 59 .

(8) القرطبي ، تفسيره ، 230/2-231 ؛ النسفي ، تفسيره ، 143/3 .

(9) سورة الحج ، الآية : 21 .

وكانت المرأة في ذلك العصر تغطي رأسها الخمار وتسدل له من وراء الظهر كما يصنع النبط فيبقى النحر والعنق والأذن لا ستر عليهما ، أما الجيوب وهي جمع جيب وهو موضع القطع من الدرع والقميص ، وعلى جيوبهن أي صدورهن لأن الجيب يكون من الثوب موضع الصدر⁽¹⁾ ، وكانت الجيوب في الجاهلية واسعة تبدو منهن صدورهن ، لهذا أمر (ﷺ) المسلمات أن يضربن بالخمار على الجيوب لستر الصدر والعنق⁽²⁾ ، وفي رواية عن أم المؤمنين عائشة قالت : رحم الله نساء المهاجرات الأول عند نزول هذه الآية شققن آزارهن واختمرن بها⁽³⁾ .

أما الجلباب فهو ثوب أكبر من الخمار وهو الرداء الذي يستر جميع البدن ، وسب نزول هذه الآية ، كان المنافقون في المدينة يجلسون في الطرقات كحال أهل المدينة فإذا مرت بهم امرأة سيئة الهيئة والزي ظن المنافقون إنها مزينة ، وأنها من بغاياهم فكانوا يؤذون المؤمنات بالرفث ولا يعلمون الحرة من الأمة لارتداء الحرة زي الأمة نفسه والكشف عن وجوهن كما يفعل الإماء ، فأمر (ﷺ) المسلمات بإرخاء الجلابيب⁽⁴⁾ ، إذا أردن الخروج لحوائجهن كذلك يجب أن لا يكون الخمار رقيقاً يشف عن جيب المرأة⁽⁵⁾ .

وقد لبست المرأة في المدينة البرد ، ويذكر أن فاطمة بنت رسول الله (ﷺ) أهدي لها في عرسها بردين احدهما دملوجان من فضة مصفران بزعفران⁽⁶⁾ ، وفي رواية أخرى تذكر إن أم كلثوم بنت رسول الله (ﷺ) كانت ترتدي برده حرير سيرا ، حيث رخص الإسلام للنساء لبس الحرير وكما جاء في حديث عن الرسول (ﷺ) : (حُرْم لباس الحرير والذهب على ذكور أمتي وأحل لإنائهم)⁽⁷⁾ .

ولبست المرأة في المدينة أيضاً السروال⁽⁸⁾ ، كما لبست الدرع ، وهو يشبه القميص إلا انه أكثر طولاً حيث يصل إلى القدمين فيغطيها⁽⁹⁾ ، وكُنَّ يلبسن الثياب المعصفرة⁽¹⁰⁾ .

(1) الطبري ، تفسيره ، 120-117/18 ؛ القرطبي ، تفسيره ، 231-230/12 .

(2) النسفي ، تفسير النسفي ، 143/3 .

(3) القرطبي ، تفسيره ، 231/12 .

(4) القرطبي ، تفسيره ، 243/14 .

(5) ابن سعد ، الطبقات ، 72/8 .

(6) المصدر نفسه ، 24/8 .

(7) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 227/12 ؛ النووي ، رياض الصالحين ، 26/2 .

(8) ابن حجر ، الإصابة ، 29/2 .

(9) مالك ، الموطأ ، 142-141/1 .

(10) ابن سعد ، الطبقات ، 71/8 .

ولم يحرم الإسلام التزين ولكن دون الإسراف وتبدل وفي حدود ما يسمح به الإسلام كما جاء في قوله تعالى : ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (1) .
وكما جاء في وصفه (ﷺ) نعيم الآخرة التي وعدا عباده المؤمنين :

﴿اجْنَاثَ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ (2) .

وكانت من عادة المرأة العربية في المدينة وغيرها أن تولي عناية فائقة في التزين والتبرج ، وقد رخص الإسلام للمرأة لبس الذهب ، فقد لبست الأقراط والقلائد والاسورة وتذكر إحدى الروايات ، أن الرسول (ﷺ) قد أهدى قلادة للمرأة الغفارية التي شاركت في خيبر (3) .

حيث تذكر إحدى الروايات أن في المدينة وحدها كان هناك ثلاثمائة صائغ من اليهود ، فلا بد أن هناك إقبال من أهل المدينة وما حولها على شرائها والاتجار بها (4) ، وكن يلبسن أيضاً الخلخال في أرجلهن ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى : ﴿... وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ...﴾ (5) .

وحرم الإسلام على المرأة المسلمة إظهار زينتها إلا أمام الزوج والأصناف التي أوردتها سورة النور الآية (31) ، وعدم إظهار الزينة والاجتهاد في إخفائها باستثناء ما يظهر بحكم الضرورة لحركة مفاجئة أو إصلاح شأن أو نحو ذلك وهو المغفو عنه (6) ، والزينة نوعان كما يذكر علماء التفسير فمنها خلقية مثل الوجه وهو أصل الزينة وجمال الخلقة وأما المكتسبة وهي ما تحاول المرأة أن تحسن به خلقها مثل الثياب والحلي والكحل والخضاب ، وما ظهر من الزينة مباح مثل الخاتم والوجه والكحلة والثياب واختلف في الأساور في إظهارها أو إخفائها (7) ، وقد أورد القرآن ذكر الزينة والتبرج في قوله تعالى : ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحاً فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ

(1) سورة الأعراف ، الآية : 31 .

(2) سورة فاطر ، الآية : 33 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق/342-343 ؛ مسلم ، صحيح ، 1635/3 .

(4) السمهودي ، وفاء الوفا ، 7/1 .

(5) سورة النور ، من الآية : 31 .

(6) الطبري ، تفسيره ، 113/18 .

(7) القرطبي ، تفسيره ، 29/12 .

ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَغْفِرْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ⁽¹⁾ .

وقوله تعالى : ...⁽²⁾ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ...⁽³⁾ .

واختلف المفسرون في تحديد المدة الزمنية للجاهلية الأولى فبعضهم ذكر أنها ما بين نوح وإدريس (عليهما السلام)⁽⁴⁾ ، والمراد بالجاهلية الأولى هنا هي التي ولد فيها النبي إبراهيم (ﷺ) حيث كن النساء في ذلك العصر يتزينن بمختلف أنواع الزينة ويلبسن ما لا يواريهن ، أما الآخرة فهي التي ولد فيها النبي محمد (ﷺ) وعاش فيها وخاصة في المدينة بعد الهجرة حيث كانوا يمرون بضائقة معاشية في مطعمهم وملبسهم فوعد الله نبيه أن يفتح عليه الأرض لهذا خير الرسول نساءه بعد نزول هذه الآية إذا أردن الرسول ومعيشته وما بها من ضيق العيش⁽⁵⁾ .

وقد اعتنى نساء المدينة بمظهرهن وزينتهن والتجمل والتبرج ، وهذا ما نستشفه من هذه الآيات ومن الآيات التي وصفت نعيم الجنة وزينتها ، وكان المسلمات يتطين بمختلف أنواع الطيب والعنبر والمسك⁽⁶⁾ ، وكن يسرحن شعورهن ويتكلن وخاصة في المناسبات مثل الأعراس ، وكان هناك نساء متخصصات بذلك العمل ، حيث يذكر عند زواج الرسول (ﷺ) بصفية بنت حيي بن اخطب ، قمن بعض النسوة بتمشيطها وتعطيرها بالطيب⁽⁷⁾ ، وكن يصبغن شعورهن بالخضاب وقد يكون لون الخضاب احمر أو اصفر ، وعن أبي هريرة عن النبي (ﷺ) : (إن اليهود والنصارى لا يصبغون ، فخالفوهم)⁽⁸⁾ .

المسكن والمتاع (الأثاث) :-

لقد تميزت البيوت في المدينة كما هي الحال في بقية مدن الحجاز بالبساطة ، إلى جانب وجود بعض القصور المشيدة وخاصة للموسرين وذوي السلطان والجاه ، وكما أشار إلى ذلك تعالى في كتابه العزيز : ...⁽⁹⁾ وَيُؤْتِي مَعْطَلَهِ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ...⁽¹⁰⁾ ، وكانت هذه البيوت

(1) سورة النور ، الآية : 60 ، والقواعد من النساء المراد بهن ، المرأة الكبيرة التي قعدت عن الولد والحيز ولا يطمع بها الرجال فلا يضر أن لا تجلب فوق الخمار ؛ الطبري ، تفسيره الطبري ، 165/18 .

(2) من سورة الأحزاب ، من الآية : 33 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 8-4/22 .

(4) ابن سعد ، الطبقات ، 200/8 .

(5) الواقدي ، المغازي ، 148/1 ؛ ابن سعد ، الطبقات ، 437/1 ؛ البخاري ، صحيح البخاري ،

119/10 .

(6) ابن سعد ، الطبقات ، 121/8 ، 72/8 .

(7) النووي ، رياض الصالحين ، 277/2-278 .

(8) سورة الحج ، من الآية : 45 .

المبسطة مبنية على أسس ولها سقوف كما ذكرنا في بناء المسجد في المدينة حيث حفر المسلمون أساسه ثلاثة اذرع وجعلوا سقوفه من جريد النخيل وجذوعها⁽¹⁾ ، وهذه فائدة أخرى للنخيل التي كثر زراعتها في المدينة وورد ذكرها في أكثر من موضع ، كدأب الإنسان على الاستفادة من كل ما تنتجه بيئته ، وعلى هذا الأساس تم أيضاً بناء بيوت زوجات الرسول (ﷺ) ، ويبدو أن هذه البيوت كانت على طابقين ويوصل لها بإدراج ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿...لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرْ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِصَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾⁽²⁾ ، ويذكر أن الرسول (ﷺ) عند نزوله على أبي أيوب ضيفاً عند قدومه المدينة اتخذ الرسول الطابق السفلي مسكناً له واتخذ أبو أيوب وزوجته أعلى الدار مسكناً لهم⁽³⁾ .

وكان لهذه البيوت أبواب وشبابيك ، كما وردت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى : ﴿...وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁴⁾ .

واتخذ اليهود والعرب في المدينة الاطام والحصون وخاصة اليهود والتي كانت في أعالي المرتفعات والتي اتخذوها مراكزاً للتحصن من الأعراب الذين قد يغيروا عليهم وصد قبائل أخرى من اليهود قد تغزوهم⁽⁵⁾ ، وكانت اطام اليهود أكثر وأقوى⁽⁶⁾ ، وقد أشار القرآن الكريم في سورة الأحزاب الآية (26-27) ، وسورة الحشر^(*) .

وقد تميزت حياة المسلمين الأوائل في المدينة بالبساطة كما ذكرنا سواء في المأكل والملبس والمتاع والأثاث ، وخاصة المهاجرين منهم في بداية الهجرة إلى المدينة ، فمثلاً فاطمة بنت الرسول (ﷺ) وأحب الناس إليه زفت إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) وهو ابن عم الرسول وما كان له من مكانة في الإسلام في بيت بسيط يحتوي القليل من المتاع وهو كما ورد في احد الروايات يتألف من : (أهاب شاة على دكات ووسادة فيها ليف وقربة ومنخل ومنشفة وقدر)⁽⁷⁾ .

(1) ابن سيد الناس ، عيون الأثر ، 196/1 ؛ يوسف عبد الهادي ، ثمار المقاصد ، 166/3 .

(2) سورة الزخرف ، من الآية : 33 ، والمعارج هنا السلالم والأدراج ؛ ينظر دروزة ، عصر النبي ، هامش ص 68 .

(3) ابن هشام ، السيرة ، ق 498/1 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 189 .

(5) السهمودي ، وفاء الوفا ، 8/1 .

(6) دروزة ، عصر النبي ، ص 31 .

(*) والتي تم ذكرها عند الكلام عن العناصر السكانية في المدينة في موضوع اليهود ، ص 173 .

(7) ابن سعد ، الطبقات ، 24/8 .

وقد نهى الإسلام عن ركوب السروج المصنوعة من الحرير وعدم افتراش جلود النمر والسباع والجلوس عليها⁽¹⁾ ، وتميزت الحياة الأسرية في البيت بالتواضع والافتقار إلى الكثير من متطلبات الحياة اليومية بعيدة عن التكلف

والترف ، وكان الرسول (ﷺ) نفسه ينام على سرير مرمول بشرط ووسادة من جلد محشو بليف⁽²⁾ ، ويذكر إن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قد أدمعت عيناه حين رأى رسول الله (ﷺ) نائماً على رمال حصيرة قد سان أثرها من جنبه ، وأبدى حزنه حين تذكر كسرى وقيصر وما ينعمان به من رغد العيش ، فأجابه الرسول (ﷺ) قائلاً : (أما ترضون أن تكون لكم الآخرة ولهم الدنيا)⁽³⁾ ، لأن الإسلام عدّ : «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمْلاً»⁽⁴⁾ .

وكانوا في المدينة يجلسون على الحصر المصنوعة من مادة الخوص من سعف النخيل وهذه فائدة أخرى للنخيل الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وكثرت زراعته في المدينة وجلس أهل المدينة على البسط والفرش المصنوعة من الصوف والمحشوة بها⁽⁵⁾ ، كما جاء في قوله تعالى : «...وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاءً وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ»⁽⁶⁾ .

وكان يجلسون أيضاً على الأرائك والأسرة والنمارق والزرابي ونستطيع أن نلمس ذلك من خلال الآيات التي تصف نعيم الآخرة ، كما جاء في قوله تعالى : «مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً وَلَا زَمْهَريراً»⁽⁷⁾ .

واستخدموا أيضاً اللحف كغطاء لهم حيث كانوا يصنعونه من أنواع مختلفة من الأقمشة ومنها القטיפ⁽⁸⁾ .

(1) النووي ، رياض الصالحين ، 26/2 .

(2) ابن سعد ، الطبقات ، 466/1 .

(3) ابن كثير ، تفسيره ، 127/4 .

(4) سورة الكهف ، الآية : 46 ، والباقيات الصالحات المراد بها ، سبحان الله والحمد لله ولا اله إلا الله والله أكبر ؛ ينظر النووي ، رياض الصالحين ، 248/1 .

(5) البخاري ، صحيح ، 72/1 ، النووي ، رياض الصالحين ، 16/2 .

(6) سورة النحل ، من الآية : 80 .

(7) سورة الإنسان ، الآية : 12 .

(8) ابن هشام ، السيرة ، ق1/499 .

وكانوا يضعون طعامهم بأواني مختلفة مصنوعة من الفخار أو الصفر لأن الإسلام قد حرم الأكل أو الشرب بأواني الفضة أو الذهب ، وكان رسول الله يقول :

(هي لهم في الدنيا ، وهي لكم في الآخرة) (1) .

وكانوا يضعون الماء في القراب أو في حب كبير لتبريده صيفاً⁽²⁾ ، ويستخدمون الأقداح لشرب الماء ، ويستخدمون التور المصنوعة من مادة الصفر للوضوء وهو إناء أكبر من القدح⁽³⁾ ، وكانوا يضعون طعامهم ويقدمونه في أوانٍ مختلفة وقصاع وصحاف ، كما جاء في قوله تعالى : «يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»⁽⁴⁾ .
«يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ⇒ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ»⁽⁵⁾ .

وكانوا يضعون أمتعتهم أو لباسهم في صناديق كبيرة ويضعون نقودهم وحليهم وغيرها في صناديق اصغر تصنع لهذا الغرض⁽⁶⁾ ، واستخدم أهل المدينة في إضاءة بيوتهم المصابيح والقناديل التي تضاء بقتيل الزيت ، وهذا ما أشارت إليه الآية الكريمة : «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ...»⁽⁷⁾ .

الغناء ومجالس اللهو والسمر :-

لم ترد كلمة الغناء ومجالسه وأدواته وآلاته صريحة في القرآن الكريم على الرغم من ذكر الخمر ومجالسه الأخروية التي جاءت انعكاساً لمجالسه الدنيوية التي لا بد أن قد عرفها أهل ذلك العصر ، ومن البديهي أن مجالس الخمر واللهو كثيراً ما يصاحبها غناء أو أن مجالس الغناء والغزف كثيراً ما يصاحبها شرب الخمر .

(1) النووي ، رياض الصالحين ، 16/2 .

(2) ابن هشام ، السيرة ، ق/499 .

(3) النووي ، رياض الصالحين ، 16/2 .

(4) سورة الزخرف ، الآية : 71 .

(5) سورة الواقعة ، الآية : 17-18 .

(6) ابن شبة ، تاريخ المدينة ، 1/144 .

(7) سورة النور ، من الآية : 35 .

وتذكر إحدى الروايات إن حسان بن ثابت في شبابه في يثرب وجد يوماً لذته في مجلس اللهو كان عامراً بالخمير والعزف من بيض نواعم في الرياط⁽¹⁾ ، ولم يذكر سبب عدم ذكر القرآن للغناء على الرغم من كونه حالة طبيعية عند البشر ترافقه في أفراحه وأحزانه وخاصة إذا تمتع الإنسان بصوت جميل شجي ، ويذكر أهل الطب أن الصوت الحسن يسري في الجسم ، ويجري في العروق ، فيصفوا له الدم ، ويرتاح له القلب ، وتهتز له الجوارح ، وتخف له الحركات ، لهذا كره العرب أن ينوم الأطفال على اثر البكاء حتى يرقص ويضطرب⁽²⁾ .

ويذكر أن الحيوانات أيضاً لتلحن إلى الصوت الحسن وتميزه ، ويذكر إن النحل اطرب الحشرات إلى الغناء ، والإبل اطرب الحيوانات للحداء⁽³⁾ .

والغناء يوجد في كل بيئة مهما كان حظها من الحضارة ثم أن مجالسه وفنونه ووسائله مما يشوق النفس ويكون لها متعة ولذتها في تعاطي الشراب ومجالسه الأنيقة ، وربما كان السبب وراء إغفال القرآن الكريم للغناء انه لم ينظر إليه نظرة مترفعة في عصر النبي وبيئته سواء في مكة أو المدينة وكل مدن الحجاز⁽⁴⁾ .

والأمثلة التاريخية كثيرة على انتشار الغناء والعزف في عصر النبي (ﷺ) ، ففي معركة بدر وعلى الرغم من إعلام قريش بنجاة قافلة أبي سفيان أصر أبو جهل على ورود قريش بدر وشرب الخمر فيها وإن تعزف وتغني لهم القيان⁽⁵⁾ ، أما في المدينة فتذكر الروايات أن أهل المدينة في عصر الجاهلية قد شغفوا به وكان لهم دورٌ خاصة للغناء⁽⁶⁾ .

وفي رواية أخرى عن الواقدي⁽⁷⁾ يذكر فيها صلف ومكابرة يهود بني النضير عند إجلاء الرسول لهم عن المدينة : (مروا يضربون بالدفوف ويزمرون بالمزامير) ، وهذه الرواية دلالة واضحة على انتشار أدوات العزف والغناء في المدينة وإن العزف عليها من الأمور المألوفة والسائدة في المدينة .

(1) محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص 140 .

(2) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 7/5 ؛ الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 280/2-284 .

(3) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 7/5 .

(4) دروزة ، عصر النبي ، ص 88-89 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق 618-619 .

(6) أبو يعلي ، الحسين بن محمد ، (ت 521هـ) ، طبقات الحنابلة ، تحقيق حامد الفقي (بيروت - د.ت) ، ج 2 ، ص 152 ؛ ضيف ، د.

شوقي ، الشعر والغناء في المدينة ومكة لعصر بني أمية ، ط 2 ، (بيروت - 1967) ، ص 58 .

(7) المغازي ، 375/1 .

ومن الآيات التي وردت فيها إشارة ضمنية للغناء كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْهُمْ وَمَا يَعْدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ (1) .

واستفزر أي استخف من استطعت ، وهنا خطاب منه تعالى للشيطان وعن بصوتك بالوسوسة أو الغناء أو المزمار وذكر الصوت هنا للشيطان تحقيقاً له لأنه لا صوت له ، ويذكر مجاهد القصد منها الغناء والمزامير واللهو الباطل (2) .

ومن الآيات التي ورد فيها إشارة للغناء أيضاً ، كما جاء في قوله تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ (3) .

ويذكر المفسرون المقصود هنا بلهو الحديث وكما جاء في إحدى الروايات عن ابن مسعود وعن ابن عباس (4) : المقصود به الغناء ، وفي رواية عن أبي امامة عن رسول الله (ﷺ) قال : (لا تبيعوا القيان ولا تشتروهن ولا تعلموهن ولا خير في تجارة فيهن وثمانهن حرام) (4) ، والقيان الجواري اللاتي يقمن بالغزف والغناء ، ولهو الحديث هو الاستماع لهن مما يلهي عن ذكر الله وعبادته (5) ، ويذكر أيضاً معنى الآية وهو كل ما يلهي عن عبادة الله تعالى من السمر والأضاحيك والخرافات والغناء ونحوها والحديث هنا المراد به المنكر ، والمعنى شراء المغنية والاستماع إليها (6) ، وفي رواية أخرى أنها نزلت في النظر بن الحارث وكان يشتري أخبار الأكاسرة من فارس ويقول محمد يقص طرفاً من قصة عاد وثمود وأنا أحدثكم بأحاديث الأكاسرة فيميلون إلى حديثه ويتركون الاستماع إلى القرآن (7) ، وهذه من الآيات التي احتج بها أصحاب الرأي في تحريم الإسلام للغناء (8) .

ويذكر بعض أهل التفسير في قوله تعالى : ﴿...يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنْ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (9) .

(1) سورة الإسراء ، الآية : 64 .

(2) النسفي ، تفسير النسفي ، 293/2 ؛ الالوسي ، روح المعاني ، 111/15 .

(3) سورة لقمان ، الآية : 6 .

(4) القرطبي ، تفسيره ، 52/14 ؛ أبو نعيم الاصبهاني ، حلية الأولياء ، 286/3 .

(5) القرطبي ، تفسيره ، 52/14 .

(6) الالوسي ، روح المعاني ، 167/21 .

(7) النسفي ، تفسير النسفي ، 280/3 .

(8) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 9/7 .

(9) سورة فاطر ، من الآية : 1 .

وفي بعض الروايات تذكر أن المراد بـ(يزيد في الخلق ما يشاء) هو الصوت الحسن⁽¹⁾ ، وقوله تعالى : ﴿وَتَضَحَّكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ⇒ وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ﴾⁽²⁾ ، حيث يذكر ابن عباس في رواية له أن معنى هذه الآية الغناء بالحميرية واسمدي ، أي غني لنا⁽³⁾ ، وخاصة أن الأنصار أصولهم من اليمن فلا بد إنهم احتفظوا واستخدموا الكثير من المفردات اليمانية القديمة ، وتعدّ هذه الآية من الآيات التي احتج بها أصحاب الرأي على عدم مشروعية الغناء في الإسلام .

أما الغزالي فيذكر⁽⁴⁾ ، أن الرأي بتحريم الغناء في هذه الآية معناه تحريم الضحك والبكاء أيضاً وهذا أمرٌ مستبعد .

وتذكر الروايات أن في يثرب قبل الإسلام الكثير من الجواري أو القيان

تخصصن بالغناء والعزف وكان باباً لرزقهم وهذا ما حرّمه الإسلام⁽⁵⁾ .

واختلفت الروايات في إجازة الإسلام ورسوله الكريم للغناء وبين عدم أجازته ، فيذكر ابن عبد ربه⁽⁶⁾ عن الغناء أن عامة أهل الحجاز جازه وكرهه عامة أهل العراق .

ويبدو لنا من خلال الروايات أن ظاهرة الغناء قد استمرت في المدينة بعد مجيء الإسلام ، ففي رواية عن عائشة زوجة النبي (ﷺ) وكان لها جارية من الأنصار فزوجتها ، فدخل عليه رسول الله (ﷺ) وسأل عائشة عن عدم سماعه غناء في هذه المناسبة ، لأن الحي من الأنصار يحب الغناء⁽⁷⁾ .

وفي رواية أخرى يذكر أن أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) دخل على عائشة وعندها جارتان تغنيان بدفين لهما فأنتهرهما أبا بكر ، فطلب منه رسول الله أن يدعهما لأنها أيام عيد⁽⁸⁾ .

وفي رواية عن عامر بن سعد البجلي قال : دخلت على أبي مسعود وأبي ثابت بن زيد وجواري لهما يضربن لهن ويغنين ، فقال لهن متعجباً ؟ تقولون بهذا وأنتم أصحاب رسول الله فقالوا : أن رسول الله رخص لنا في الغناء في العرس والبكاء على الميت من غير نواح⁽⁹⁾ .

(1) القرطبي ، تفسيره ، 320/14 ؛ ابن الجوزي ، زاد الميسر ، 473/6 ، وفي رواية عن الزهري وابن جريج .

(2) سورة النجم ، الآية : 60-61 .

(3) الطبري ، تفسيره ، 82-83/27 ، ويذكر ذلك في إحدى رواياته ؛ القرطبي ، تفسيره ، 52-51/14 .

(4) إحياء علوم الدين ، 282/2 .

(5) ابن حجر ، الإصابة ، 11/3 ؛ الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 282/2 .

(6) العقد الفريد ، 6/7 .

(7) النسائي ، السنن الكبرى ، 309/5 .

(8) ابن حبان ، صحيح ابن حبان ، 185/13 .

(9) الذهبي ، سير أعلام النبلاء ، 520/2 .

ومن الآيات التي جاء بها فيها ذكر اللهو بمعنى الغناء والعزف على آلات الموسيقى كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انْفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ اللَّهْوِ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ (1).

ويذكر أن أهل المدينة قد أصابهم جوع وغلاء في الأسعار فقدمت عير تحمل الطعام وهي لدحية الكلبي ، وكان من عادات أهل المدينة كانوا يبلغوا عن قدوم القافلة بالطبل والمزامير ، وكان رسول الله (ﷺ) يخطب بالناس في يوم الجمعة ، فلما سمعوا ذلك تسللوا من المسجد دون استئذان ولم يبقَ منهم مع رسول الله إلا اثنا عشر رجلاً ، وهنا إشارة واضحة إلى استمرار الغناء والطبل والمزامير في المدينة حتى بعد انتشار الإسلام فيها (2) ، وفي رواية أخرى عن جابر بن عبد الله قال : (كان الجواري إذا نكحوا كانوا يمرون بالكبر والمزامير ويتركون النبي (ﷺ) قائماً على المنبر يخطب وينقضون إليها) (3) .

وكان يصحب الغناء أحياناً الرقص بالحراب الذي اشتهر به الأحباش الذين سماهم رسول الله (ﷺ) (أبناء ارفدة) (4) .

وتذكر الروايات عند دخول النبي (ﷺ) المدينة مهاجراً استقبله أهلها بالغناء والدفوف وهم يغنون (5) :

أقبل البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعى الله داع
وكذلك لعبت الحبشة لقدمه فرحاً بحرابهم (6) ، فلم ينكر عليهم ذلك ، وكان مرتاحاً لهذا الاستقبال .
والمعروف في السنة النبوية أن الرسول حينما يجد عملاً لا يرضيه يعترض عليه ويستنكره أو يسكت عنه أو يستحسنه وكان سكوته دلالة على الرضى والقبول .
وتذكر رواية أخرى إن الأحباش لعبوا بحرابهم في المسجد فرماهم عمر بن الخطاب (◀) بالحصباء ، فقال له رسول الله (ﷺ) : دعهم يا عمر إنهم بنو ارفدة (7) .

(1) سورة الجمعة ، الآية : 11 .

(2) الطبري ، تفسيره ، 104/28-105 .

(3) المصدر نفسه ، 104/28-105 .

(4) مسلم ، صحيح ، 610/2 ؛ أبو داود ، سنن أبو داود ، 281/4 ؛ الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 82/2 .

(5) ابن هشام ، السيرة ، ق1/291-292 .

(6) أبو داود ، سنن أبو داود ، 281/4 ؛ الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 282/2 .

(7) مسلم ، صحيح ، 610/2 ؛ ابن حبان ؛ صحيح ابن حبان ، 185/13 .

ويذكر الفريق الذي قال بإجازة الإسلام للغناء ، إن اصل الشعر الذي أمر النبي (ﷺ) به وحثَّ عليه ، وندب أصحابه إليه وتجند به على المشركين ؛ فقال لحسان : (شَنَّ الغارة على بني عبد مناف ، فو الله لشعرك أشدَّ عليهم من وقع السهام في غلس الظلام)(1) .

وكان أكثر شعر حسان بن ثابت يغنى به ، وإنما جعلت العرب الشعر موزوناً لمد الصوت فيه والدندنه ، ولولا ذلك لكان الشعر المنظوم كالخبر المنثور(2) .

ويذكر أن عطاء سئل عن قراءة القرآن على الحان الغناء والحداء قال : لا بأس في ذلك(3) . وأجاز البعض قول الشعر بلحن ، وكذلك تجويد القرآن أي (تحسين القراءة وترتيلها بترديد الصوت من غير تمطيط مفرط بغير النظم فذلك سنة) ، قال رسول الله (ﷺ) : (زينوا القرآن بأصواتكم)(4) . وقول رسول الله (ﷺ) : (ما أذن الله لشيء ماذن لنبي حسن الصوت يتغنّى بالقرآن)(5) .

وفي رواية أن رسول الله (ﷺ) استمع ذات ليلة إلى عبد الله بن مسعود ومعه أبو بكر وعمر (رضي الله عنهم) فوقفوا طويلاً ثم قال (ﷺ) : (من أراد أن يقرأ القرآن غصاً طرياً كما انزل فيقرأه على قراءة ابن أم عبد)(6) . وقال رسول الله (ﷺ) لأبن مسعود : (اقرأ عليّ فقال يا رسول الله اقرأ عليك وعليك انزل فقال (ﷺ) : أني أحب أن اسمعه من غيري فكان يقرأ وعينا رسول الله (ﷺ) تفيضان)(7) .

ويذكر أن النبي (ﷺ) قال لأبي موسى الأشعري لما أعجبه حُسن صوته عند

تجويده القرآن : (لقد أوتيت زمزماً من مزامير آل داود)(8) .

إذن نستنتج من هذه الروايات أن الإسلام أجاز الغناء في المناسبات والأعراس ، حيث كانوا يغنون وينشدون أشعاراً قيلت في أيام الجاهلية ويذكرون تلك الأيام ، دون الأشعار التي فيها الغزل الفاحش أو الغزل الذي لا يحل ذكره(9) ، وقد ردد بعض الصحابة شيئاً من الرجز المغنى وخاصة من كان حسن الصوت منهم حيث تذكر الروايات أن البراء بن مالك الأنصاري كان يرجز لرسول الله (ﷺ) في بعض أسفاره ، حيث

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 6/7 .

(2) المصدر نفسه ، 8/7 .

(3) المصدر نفسه ، 8-7/7 .

(4) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 286/1 .

(5) المصدر نفسه ، 286/1 ؛ النووي ، رياض الصالحين ، 83/2 .

(6) الغزالي ، إحياء علوم الدين ، 287/1 .

(7) المصدر نفسه ، 287/1 ، النووي ، رياض الصالحين ، 287/2 .

(8) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 4/7 .

(9) ابن حيان ، صحيح ابن حبان ظن 187/13-189 .

كان طابع غناء الصحابة هو الحداء وهو سوق الإبل والغناء لها ، حيث كانت معظم أشعارهم إسلامية تظهر فضل الإسلام عليهم⁽¹⁾ .

ويبدو أن عادة الغناء والطرب كانت متأصلة في أهل الحجاز وخاصة المدينة فقد استمرت وتفتشت بشكل أوسع بعد عصر الرسول (ﷺ) فكثر عدد المغنين والمغنيات في مكة والمدينة وضواحيها في عصر الراشدين ، ويذكر أن الإمام مالك ابن انس الذي نشأ في المدينة عندما كان غلاماً انه تتبع المغنين وأراد أن يصبح منهم لكن أمه نصحته بتتبع الفقهاء فبلغ الله به هذه المرتبة⁽²⁾ .

أما الميسر : فقد كان من العادات الراسخة الشائعة التي اعتادها الناس لهذا نرى أن الإسلام لم يحرمها في بداية العهد المدني وكانت طريقة للهو وقرنت بالخمير مما قد يدل على أن مجالسه قد تكون مشاركة مع الخمر وقد ورد ذكره في سورتي البقرة والمائدة وهما من السور المدنية مما يدل على انتشاره في المدينة وكذلك في مكة وقد يكون في كل منطقة الحجاز ، وكانت هذه العادة متأصلة في الأغنياء وطالما افتخروا به لأنه ضرب من المقدرة والكرم ، حيث يطعمون المحتاجين ما ربحوه وخاصة أيام الشدة وأيام الشتاء والجذب ، وكانت طريقتهم أن يجتمع الموسرون ويشترىوا جزوراً يقسمه الجزار عشرة أجزاء ثم يجاء بالقдах فيأخذ كل من ذي الایسار على مقدرتة ثم يسلمونها إلى أمين يدفنها في الرمل أو يضعها في خريطة ، ويدخل يده ويخرج قدحاً وهكذا ، ويضمن اللاعبون ثمنها لصاحبها ويدفع الثمن بعد المياسرة الغارمون وحدهم وتجعل القдах العشرة في خريطة وتجال وتحرك فيها ثم يخرج المحكم عنهم أول قدح باسم احدهم على ترتيب معين ، ويكون هذا القдах هو نصيبه فان كان رابحاً عرف مقدار ربحه ويبقى القдах خارج الخريطة لا يعاد إليها ثم يخرج قدحاً ثاني وهكذا⁽³⁾ .

1- وكما جاء في قوله تعالى : ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسْرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا ...﴾ لا⁽⁴⁾ .

2- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ لا⁽⁵⁾ .

(1) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، 8/7-9 ؛ ابن حجر ، الإصابة ، 43/1 .

(2) الاصفهاني ، الأغاني ، 128/7 ، وما بعدها ؛ محمد طاهر درويش ، حسان بن ثابت ، ص 127 .

(3) ابن حبيب ، المحبر ، ص 332-333 ؛ الحوفي ، الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص 455 .

(4) سورة البقرة ، من الآية : 219 .

(5) سورة المائدة ، الآية : 90 .

ويذكر الالوسي أن من مفسد الميسر الذي عده (⇒) رجساً ، انه يدعو كثيراً من المقامرين إلى السرقة وتلف النفس وإضاعة المال وارتكاب الأمور القبيحة والرزائل الشنيعة والعداوة الكامنة⁽¹⁾ .

والحكمة في تحريم الميسر لما فيه من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر واستجلاب العداوات المفضية إلى سفك الدماء وهتك الحرم وغير ذلك من المفسد التي لا يقابلها ما يترتب على الميسر من المنفعة كمصير الشيء إلى الإنسان من غير تعب ولا كد ، وما يحصل من السرور عندما يصير له منها سهم صالح ، وقد ذكر (⇒) ما فيه من المفسد الدنيوية والدينية ، أما الدنيوية فما يوقعه الشيطان ما بين اللاعبين من العداوة والبغضاء ، فقد يقامر الرجل حتى لا يبقى له شيء وتنتهي به المقامرة إلى انه يقامر بولده وأهله فيؤدي به ذلك إلى انه يصبح ألد الأعداء إن قهره وغلبه ، وأما المفسد الدينية فهي الصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغير ذلك من أفعال الخير⁽²⁾ .

بعد أن أنهيت هذه الرسالة بعون من الله ومئةً منه خرجت بجملة من الاستنتاجات ذكرت معظمها في مقدمة البحث استعضت بها عن الخاتمة وأوجزها بما يأتي:

- 1- الهجرة من مكة إلى المدينة هي الحدث التاريخي المهم في تأريخ الدعوة الإسلامية والتي أرخ لها القرآن الكريم بجملة من الآيات القرآنية فضلاً عن التمهيد لها من خلال بيعتي العقبة الأولى والثانية والتي جاء في القرآن الكريم ما يفصل لأحداثها .
- 2- جاءت أكثر الأحداث التاريخية التي وردت عبر روايات تاريخية ذكرها المؤرخون متطابقة مع ما ورد من آيات قرآنية وردت في القرآن الكريم وعلى سبيل المثال لا الحصر ما أشار إليه الطبري في كتابه (تأريخ الرسل والملوك) من أن عدد النقباء الذين التقى بهم الرسول (△) في العقبة كانوا اثنا عشر رجلاً وهذا ما تطابق مع إشارة القرآن الكريم للحواريين والذين كانوا اثنا عشر شخصاً .
- 3- أما التأريخ للوضع الاجتماعي والاقتصادي للمدينة المنورة من خلال القرآن الكريم فقد وردت ألفاظ ومفردات كثيرة في السور المدنية تتعلق بالزراعة والصناعة وحياة المجتمع .
- 4- كان القرآن الكريم الفيصل في حسم الجدل في اختلافات الرواة والمؤرخون في الكثير من التسميات للأمكنة أو الحوادث كما هو الحال في تسمية يثرب التي وردت في (الآية 13 سورة الأحزاب) .

(1) الالوسي ، بلوغ الإرب ، 66/3 .

(2) الالوسي ، بلوغ الإرب ، 66/3 .

- 5- اتضح أن كثيراً من السنن والقوانين التي أصبحت جزءاً من حياة المجتمع المدني بعد الإسلام كان متعارف عليها قبل الإسلام وعلى سبيل المثال لا الحصر (الدية التي حكم بها العرب قبل الإسلام جاء بها حكم الإسلام) كما ورد في (الآية 92 سورة النساء) .
- 6- إن كثيراً من التنظيمات الإدارية والعسكرية تم التعامل بها من خلال ما ورد من آيات في القرآن الكريم وعلى سبيل المثال لا الحصر تنظيمات الجيش وإعداد المقاتلين وكذلك التنظيمات الاقتصادية فضلاً عن السياسية والاجتماعية .
- 7- وردت آيات قرآنية كثيرة وفي سور مختلفة يمكن أن تعتمد اعتماداً كلياً في التأريخ بكثير من الظواهر الاجتماعية وحياة المجتمع المدني مما أعطت صورة واضحة لهذا المجتمع فقد أشار إلى القبيلة ودورها من خلال رابطة التضامن والاندماج بين من تربطهم رابطة الدم ، و ذم أو انتقد ما يخالف ذلك من عصبية خاصة ، أولئك الذين تمسكوا بحياة البداوة والتأثر وخشونة الطباع من الأعراب .
- 8- تم اعتماد القرآن الكريم كمصدر تأريخي مهم في التأريخ لكثير من صور مجتمع المدينة وخاصة فيما يتعلق بالأخلاق ومكارمها والآداب العامة التي دعى لها الإسلام في العفو والتجاوز عن زلات وهفوات المسلمين وغير المسلمين وغيرها من المبادئ الخلقية والآداب العامة .
- 9- أعطى القرآن الكريم صورة واضحة للمستوى المعاشي لمجتمع المدينة من انه كان ينعم بنوع من الثراء ولم يكن ما وصفه القرآن الكريم لنعيم الآخرة من أواني وملابس وألوان مختلفة من الطعام والفواكه والافرشة إلا دليل على أن المخاطبين قد عاشوا وعرفوا هذه الأمور ولا سيما الموسرين منهم .